سلسلة : محبة الله تعالى وفعلها بالقلوب

الكتاب التمهيدى

المحبة في ضوء الكتاب والسنة

دراسة حديثية عقدية تفسيرية

جمع وتصنيف

د/ ابو عمرو الانصاري

أحمد صالح محمد المصرى

أستاذ مساعد بقسم الحديث وعلومه

بالجامعة الإسلامية بمنيسوتا (المركز العام)

والجامعة الإسلامية العلمية بغينيا

والجامعة الإسلامية المفتوحة

المقدمة

الحمد لله الذي امتنَّ على عباده بنعمة الإيمان، وجعل محبته أصل الدين، وروح اليقين، وقرة عيون العارفين، أحمده سبحانه على ما أولى من الإحسان، وأشكره على ما هدى إليه من صراط الإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل محبته غاية الغايات، وأشرف المقامات، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، أكمل الخلق محبةً لله، وأعظمهم تعظيمًا له، وأصدقهم عبوديةً له، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن المحبة من أجلِّ أعمال القلوب، وأعظم منازل السالكين إلى الله تعالى، بل هي روح العبودية، وسرُّ الطاعة، وملاك الدين، إذ لا تستقيم عبادةٌ إلا بمحبة الله سبحانه وتعالى، ولا يكتمل الإيمان إلا إذا امتلأ القلب بمحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكانت تلك المحبة مقدمةً على كل محبوب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

وقد عني القرآن الكريم ببيان حقيقة المحبة، فذكر من يحبهم الله، ومن لا يحبهم، وبيَّن صفات أوليائه الذين أحبوه وأحبهم، وربط بين المحبة والإيمان، والمحبة والطاعة، والمحبة والاتباع، والمحبة والولاية، والمحبة والجزاء، حتى غدت المحبة أصلًا عظيمًا تدور عليه أبواب كثيرة من العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والدعوة، والسلوك.

كما جاءت السنة النبوية المطهرة شارحةً لهذا الأصل العظيم، فوردت فيها الأحاديث الكثيرة التي تبين منزلة المحبة، وآثارها، وأسبابها، وثمراتها، وعلاماتها، وحقوقها، وأحكامها، حتى صار هذا الباب من أوسع أبواب تزكية النفوس، وأعظمها أثرًا في إصلاح القلوب.

ولما كان كثير من الدراسات قد تناولت المحبة تناولًا وعظيًا، أو صوفيًا، أو عقديًا مجردًا، دون جمعٍ شاملٍ للنصوص، أو دراسة حديثية تجمع بين التخريج والتحقيق والاستنباط، رأيت أن أجمع ما تيسر من آيات المحبة، وأحاديثها، مع تحريرها، وتحقيقها، وجمع أقوال أهل التفسير والحديث فيها، ثم استخراج صفات الذين يحبهم الله تعالى، وصفات الذين يحبونه، وبيان الآثار الإيمانية والتربوية والدعوية المستفادة من ذلك.

وقد سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي في جمع النصوص، والمنهج التحليلي في دراسة معانيها، والمنهج الحديثي في تخريج الأحاديث والحكم عليها، والمنهج الاستنباطي في استخراج الفوائد والقواعد، مع الاعتماد على أمهات

كتب التفسير، وشروح الحديث، وكتب العقيدة، وأقوال أئمة السلف رحمهم الله تعالى.

وأسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يجعله من العلم الذي يبقى أجره بعد انقطاع العمل، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أولًا: أهمية البحث

تنبع أهمية هذا البحث من أهمية موضوعه، فإن المحبة من أجلِّ أعمال القلوب، بل هي أصل العبودية، وروح الطاعة، وعليها تدور منازل السائرين إلى الله تعالى، فلا عبادة بلا محبة، ولا إخلاص بلا محبة، ولا متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا إذا استقرت محبته في القلب، وقد قرن الله تعالى بين محبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وجعل اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم برهانًا على صدق محبة العبد لربه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وتزداد أهمية هذا البحث لما وقع فيه كثير من الناس من الخلط بين المحبة الشرعية، والمحبة الطبيعية، والمحبة المذمومة، حتى دخلت مفاهيم دخيلة، وتأويلات باطلة، وغلو وجفاء، فأصبح من الضروري تحرير هذا الباب تحريرًا علميًا، بالرجوع إلى نصوص الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح، بعيدًا عن الانحرافات الفكرية والسلوكية.

كما أن هذا البحث يجمع بين التفسير، والحديث، والعقيدة، والتربية، والسلوك، مما يجعله جامعًا بين علوم متعددة، تدور كلها حول أصل واحد، هو محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولا يعلم الباحث - بحسب اطلاعه - دراسةً جمعت جميع آيات المحبة، وجميع الأحاديث الصحيحة المتعلقة بها، مع تخريجها، وتحقيقها، وربطها بأقوال المفسرين وشراح الحديث، ثم استخراج القواعد الإيمانية والتربوية والدعوية المستفادة منها في مؤلَّف واحد.

ثانيًا: أسباب اختيار الموضوع

من أهم الأسباب التي دفعت إلى اختيار هذا الموضوع:

أن المحبة أصل الدين، وأساس جميع أعمال القلوب.

كثرة ورود مادة المحبة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

حاجة المسلمين إلى بيان المحبة الشرعية في زمن اختلطت فيه المفاهيم.

إبراز صفات الذين يحبهم الله تعالى؛ ليجتهد المؤمن في التحلي بها.

التحذير من الصفات التي تمنع محبة الله عز وجل.

جمع الأحاديث المتعلقة بالمحبة في مؤلَّف واحد مع تخريجها وتحقيقها.

ربط الجانب العلمي بالجانب الإيماني والتربوي؛ حتى يتحول العلم إلى عمل، والمعرفة إلى عبادة.

تقريب هذا الباب العظيم لطالب العلم والداعية والخطيب والمربي، ليكون مرجعًا يجمع النصوص، ويحرر المسائل، وييسر الرجوع إليها.

ثالثًا: أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق جملة من المقاصد العلمية والإيمانية، من أهمها:

جمع جميع آيات المحبة الواردة في القرآن الكريم، وترتيبها ترتيبًا موضوعيًا.

جمع الأحاديث النبوية المتعلقة بالمحبة، مع تخريجها، وتحقيق أسانيدها، وبيان درجتها.

تحرير مفهوم المحبة في ضوء الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح.

بيان صفات الذين يحبهم الله تعالى، وصفات الذين يحبونه.

بيان الصفات والأعمال التي لا يحبها الله تعالى.

إبراز أثر المحبة في إصلاح القلوب، وتقويم السلوك، وتحقيق العبودية.

استخراج القواعد الإيمانية والعقدية والدعوية والتربوية المتعلقة بالمحبة.

إعداد مرجع علمي يجمع بين أصالة المادة، وصحة الدليل، وحسن العرض، وسهولة الرجوع.

التمهيد

منزلة المحبة في الإسلام

الحمد لله الذي جعل محبته حياة القلوب، ونور الأرواح، وروح العبودية، وأصل الإيمان، فلا يقوم دين عبد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إمام المحبين، وسيد العابدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن المتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أن المحبة ليست خلقًا من الأخلاق فحسب، ولا منزلةً من منازل السالكين فحسب، وإنما هي الأصل الذي تدور عليه جميع أعمال القلوب، بل هي روح الإسلام، وسر الإيمان، وحقيقة العبودية، فإن العبد إنما يعبد ربه لأنه يحبه، ويرجوه، ويخافه، فكل عبادة خلت من المحبة كانت صورةً بلا روح، وجسدًا بلا حياة.

ولذلك قرر أهل العلم أن العبادة تقوم على ثلاثة أركان عظيمة: كمال المحبة، وكمال الذل، وكمال الرجاء والخوف، فإذا اختل ركن المحبة لم تبق العبادة عبادةً كاملة، بل قد تتحول إلى عادة أو تكلف، وربما أدت بصاحبها إلى السآمة والانقطاع.

ولهذا كانت المحبة أول ما دعا إليه القرآن، وآخر ما يستقر في قلوب أهل الإيمان، فهي أول الطريق وآخره، وبها يجد المؤمن حلاوة الإيمان، ولذة الطاعة، والأنس بذكر الله تعالى.

ومن تأمل القرآن وجد أن مادة المحبة جاءت في عشرات المواضع، فتارة يخبر الله عن محبته لعباده، فيقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

وتارة يبين صفات أوليائه، فيقول:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

وتارة يجعل محبته شرطًا لصحة الإيمان، فيقول:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

وتارة يحذر من تقديم محبة غيره عليه، فيقول:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾

بل جعل الله سبحانه وتعالى أشرف أهل الأرض وصفًا أنهم يحبونه ويحبهم، فقال:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

ولم يقتصر الأمر على القرآن الكريم، بل جاءت السنة النبوية تؤكد هذا الأصل العظيم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم كمال الإيمان متوقفًا على كمال المحبة، فقال:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.»

وجعل وجود حلاوة الإيمان مرتبطًا بالمحبة، فقال:

«ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...» كما سياتى بيانه

وجعل اجتماع المؤمنين على المحبة في الله من أعظم أسباب النجاة يوم القيامة، فقال في الحديث القدسي:

«وجبت محبتي للمتحابين فيَّ...»

ومن هنا يظهر أن المحبة ليست بابًا من أبواب الترغيب فحسب، بل هي أصلٌ عظيم من أصول العقيدة، وقاعدة من قواعد السلوك، ومفتاح من مفاتيح تزكية النفوس، وعليها تبنى أعمال القلوب كلها؛ من الإخلاص، والإنابة، والتوكل، والرضا، والشوق، والأنس، والحياء، والخشية، وغير ذلك من المقامات العظيمة.

ولهذا كان من تمام النصح للأمة أن يُفرد هذا الباب بالدراسة، وأن تُجمع نصوصه، وتُحرر مسائله، ويُرد فيه إلى كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفهم سلف الأمة، حتى يعرف المسلم حقيقة المحبة التي أرادها الله، فيسير إلى ربه على بصيرة، ويعبده على علم، ويحقق قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

الفصل الأول

تعريف المحبة لغةً واصطلاحًا

المبحث الأول

تعريف المحبة لغةً

المَحَبَّةُ في اللغة مأخوذة من مادة (ح ب ب)، وهي تدور في أصل استعمالها على معنى الوداد والميل إلى المحبوب، وهي ضد البغض.

قال ابن منظور رحمه الله: «الحُبُّ: نقيضُ البُغْضِ، والحُبُّ: الوِدادُ والمَحَبَّةُ، وكذلك الحِبُّ بالكسر... والمَحَبَّةُ أيضًا اسمٌ للحُبِّ، والحِبابُ بالكسر: المُحابَّةُ والمُوادَّةُ»."[١]

وقال الزبيدي رحمه الله: «الحُبُّ نقيضُ البُغض، والحُبُّ: الوداد، والمحبَّة... بمعنى المحابَّة والموادَّة»."[٢]

وأما ابن فارس رحمه الله فقد ردَّ مادة (حب) إلى أصول لغوية، فقال: «الحاء والباء أصول ثلاثة: أحدها اللزوم والثبات، والآخر الحَبَّة من الشيء ذي الحَبِّ، والثالث وصف القِصَر»."[٣]

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، مادة: (حبب)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج١، ص٢٨٩-٢٩٠

(٢) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة: (حبب)، تحقيق: جماعة من المحققين، وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت، ج٢، ص٢٥٣ وما بعدها.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٢، ص٢٦، مادة: (حب).

ومن المعاني التي ذكرها أهل اللغة في هذه المادة اللُّزوم والثبات، وهو معنى لطيف الصلة بالمحبة؛ إذ إن المحبة الصادقة يثبت أثرها في القلب ويلزم المحب محبوبه بقلبه وميله وإرادته. كما أن العرب تقول: أحبَّه فهو مُحِبٌّ، وهو محبوب، وتأتي المحبة بمعنى المودة والوداد.

وعلى هذا فإن المحبة في أصل اللغة تدل على الوداد وميل القلب إلى المحبوب والتعلق به، مع ما يتضمنه أصل المادة من معنى الثبات واللزوم. وهذا المعنى اللغوي يمهد لمعناها الشرعي؛ إذ ليست المحبة الشرعية مجرد دعوى باللسان، وإنما هي ميل القلب إلى المحبوب وتعظيمه، وما يثمره ذلك من الموافقة والطاعة والاتباع.

تعريف المحبة في الاصطلاح

اختلفت عبارات العلماء في تعريف المحبة، لا لاختلاف حقيقتها، وإنما لاختلاف نظر كل عالم إلى آثارها أو أسبابها أو ثمراتها، ولذلك قال غير واحد من أهل العلم: إن المحبة لا تحد بحد جامع مانع، وإنما تعرف بآثارها ولوازمها.

وقد نقل العلماء في تعريفها عبارات كثيرة، من أجمعها ما يأتي:

أولًا: تعريف الراغب الأصفهاني

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «المحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا.»

ثـم بـيَّن أن محبـة الله للعبـد هي إنعامـه عليـه وإرادة الخيـر لـه، وأن محبـة العبـد لله هي إرادة طاعته والتقرب إليه. [١]

ثانيًا: تعريف ابن تيمية

قال ابن تيمية رحمه الله:

المحبـة هي أصـل كـل حركـة في العـالم العلـوي والسـفلي، وهي أصـل كـل عمـل ديني ودنيوي.

وبيَّن أن العبادة قائمة على كمال المحبة مع كمال الذل لله تعالى."[٢]

ثالثًا: تعريف ابن القيم

قال ابن قيم الجوزية:

المحبـة منزلـةٌ تنـافس فيهـا المتنافسـون، وإليهـا شـخص العـاملون، وإلى علمهـا شـمر السـابقون، وعليهـا تفـانى المحبـون، وبـروح نسـيمها تـروح العابـدون، فهي قـوت القلـوب، وغـذاء الأرواح، وقـرة العيـون، وهي الحيـاة التي مـن حرمهـا فهـو من جملة الأموات. وهذا من أجمل ما قيل في بيان حقيقة المحبة وآثارها."[٣]

---

(١) (الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، مادة (حب).

(٢) (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية.)

(٣) (ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، جـ٣، باب منزلة المحبة.)

رابعًا: تعريف الغزالي

قال أبو حامد الغزالي: المحبة ميل النفس إلى ما يوافقها.

ثم قسمها إلى محبة طبيعية، ومحبة عقلية، ومحبة إلهية.:(**الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.)**

مناقشة التعريفات

هذه التعريفات وإن اختلفت ألفاظها، فإنها ترجع إلى أصل واحد، وهو أن **المحبة:**عمل قلبي يقتضي ميل القلب إلى محبوبه.ويستلزم تعظيمه.ويثمر طاعته وإيثاره.

ولذلك لم يعرفها كثير من السلف بحدود منطقية، وإنما عرفوها بآثارها؛ لأن حقيقتها تدرك بالذوق الإيماني أكثر من إدراكها بالعبارات المجردة.

التعريف المختار

وبعد النظر في تعريفات أهل اللغة، وأقوال المفسرين، وكلام أئمة السلوك والعقيدة، يظهر - والله أعلم - أن أجمع

تعريف للمحبة هو:

المحبة: ميل القلب إلى محبوبه ميلًا يقتضي تعظيمه، وإيثاره، والأنس به، والرضا بقربه، والانقياد له بحسب قوة تلك المحبة.

وهذا التعريف يجمع بين أصلها اللغوي، وآثارها الشرعية، ولوازمها العملية، وهو أنسب التعريفات لموضوع هذا البحث.

المبحث الثاني

حقيقة المحبة عند أهل السنة والجماعة

المطلب الأول

تعريف المحبة اصطلاحًا

لما كانت المحبة من أعمال القلوب، ومن أدق أحوالها، عسر على كثير من العلماء وضع حد جامع مانع لها؛ لأن الأمور الوجدانية لا تُدرك حدودها بالألفاظ المجردة، وإنما تعرف بآثارها ولوازمها، ولذلك كثرت عبارات العلماء في تعريفها، مع اتحاد مقاصدهم.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله:

"المحبة عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق لها."

ثم بيَّن أن هذا الميل قد يكون لما تدركه الحواس، وقد يكون لما يدركه العقل، وأن أعلى أنواع المحبة محبة الله تعالى؛ لأنها ناشئة عن معرفة كماله وجلاله وإحسانه[1]

وقال الإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله:

---

(١) .(الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، دار المعرفة، بيروت، جـ٤، صـ٢٨٦.)

"المحبة إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا."

ثم قال:

"ومحبة الله للعبد إنعامه عليه، ومحبة العبد لله إرادة طاعته"[١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"أصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الدين كله لله."

وبيَّن أن جميع أعمال القلوب ترجع إلى هذا الأصل العظيم."[٢]

وقال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله:

"المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات."[٣]

---

(١) ."(الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، صـ٢٢٦.)

(٢) (ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، جـ١٠، صـ١٤٩.)

(٣) (ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، جـ٣، صـ٩.)

تحرير محل النزاع

ومن خلال هذه التعريفات يظهر أن العلماء لم يريدوا تعريف المحبة بحدها المنطقي، وإنما وصفوا حقيقتها وآثارها؛ لأنها أمر يجده الإنسان في قلبه، كما يجد الفرح، والحزن، والخوف، والرجاء، ولا يستطيع أن يحيط بحقيقته لفظ جامع.

ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية أيضًا:

"المحبة لا تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً."[1]

التعريف المختار

وبعد استقراء كلام أهل اللغة، والمفسرين، وأئمة العقيدة والسلوك، يظهر - والله أعلم - أن المحبة يمكن تعريفها بأنها:

ميل القلب إلى محبوبه ميلًا يوجب تعظيمه، وإيثاره، والأنس بقربه، والرضا بطاعته، والانقياد له، بحسب قوة تلك المحبة.

وهذا التعريف يجمع بين أصلها اللغوي، وحقيقتها الشرعية، وآثارها العملية.

---

(١) (ابن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، صـ١٨.)

وقفة إيمانية

ما أجمل أن يبدأ هذا الكتاب بتقرير أن الدين كله قائم على المحبة؛ فليست الطاعة حركات تؤدى، ولا ألفاظًا تُردد، وإنما هي ثمرة قلب عرف ربه فأحبه. فإذا ضعفت المحبة، ثقلت الطاعة، وإذا قويت، صارت العبادة أنسًا ولذة، ولذلك كان السلف يقولون: إن المطيعين في نعيم لو علم به الملوك لجالدونا عليه بالسيوف. وليس ذلك النعيم إلا نعيم القرب من الله، ولذة محبته، والأنس بذكره، فنسأل الله أن يجعلنا من الذين يحبهم ويحبونه.

المطلب الثاني

منزلة المحبة عند أهل السنة والجماعة

إذا كانت العبادات الظاهرة هي بناء الإسلام، فإن المحبة هي الروح التي تسري في هذا البناء، فإذا خرجت المحبة من القلب، بقيت صورة العمل، وذهبت حقيقته، ولهذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى الغاية من خلق الخلق مجرد العمل، وإنما جعل غايتها عبادته، والعبادة لا تكون عبادة حتى تقوم على أصلين عظيمين: كمال المحبة، وكمال الذل.

ولهذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن:العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ثم بيَّن أن أصلها يقوم على غاية الحب مع غاية الذل، فمن أحب الله ولم يذل له، لم يكن عابدًا، ومن ذل له بغير محبة، لم يكن عابدًا، وإنما العبادة الحقة اجتماع الأمرين."[1]

وانطلاقًا من هذا الأصل قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله:

العبادة هي كمال المحبة مع كمال الخضوع.

ولهذا كانت المحبة روح الصلاة، وروح الصيام، وروح الذكر، وروح الدعاء، بل روح الإسلام كله.

---

(١) (انظر العبودية، لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي).

ولـذلك لـم يكثر القـرآن مـن ذكـر شـيء مـن أعمـال القلـوب كمـا أكثر مـن ذكـر المحبـة، فتـارة يخبـر عـن محبتـه لعبـاده، وتـارة يـدعو عبـاده إلى محبتـه، وتـارة يجعل محبته جزاءً لأعمالهم، وتارة يحذرهم من تقديم محبة غيره عليه.

ومـن تأمـل القـرآن وجـد أن مـادة (حـب) ومـا اشـتق منهـا جـاءت في مواضـع كثيرة، وكلها تدل على أن هذا الباب من أعظم أبواب الدين.

ولذلك قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

فجعل سبحانه الاتباع برهان المحبة، ولم يجعل المحبة مجرد دعوى باللسان.

وقال جل جلاله:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

فلم يقل: يحبون الله.

بل قال: ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾.

إشـارة إلى أن محبـة المـؤمن لله تعلـو على كـل محبـة، فـلا يقـدم عليهـا ولـد، ولا والد، ولا مال، ولا وطن، ولا سلطان.

ولذلك لما ذكر الله المحبوبات التى تميل إليها النفوس قال بعدها مباشرة:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ... أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ... فَتَرَبَّصُوا﴾.

وهذه الآية من أعظم الآيات فى باب المحبة، لأنها جعلت ميزان الإيمان ترتيب المحبوبات.

فكلما علت محبة الله فى القلب، انقادت الجوارح للطاعة.

وكلما ضعفت، ثقلت العبادة، وسهلت المعصية.

ولهذا كان السلف رحمهم الله لا ينظرون إلى كثرة العمل وحدها، وإنما ينظرون إلى ما فى القلب من محبة الله، لأنها الأصل الذى تتفرع عنه جميع الأعمال.

وقفة إيمانية

أكثر من يقول: إنى أحب الله.

ولكن الله سبحانه لم يجعل للمحبة علامة أوضح من الاتباع.

فكلما ازداد العبد اتباعًا لرسول الله ﷺ، علم أنه يسير فى طريق المحبين.

وكلما وجد فى نفسه تثاقلًا عن الطاعة، أو جرأة على المعصية، فليعلم أن فى قلبه نقصًا يحتاج إلى علاج.

فليس العلاج أن يكثر الكلام عن المحبة...

بل أن يكثر النظر فى أسماء الله وصفاته، وآلائه، وإحسانه، فإن القلوب مفطورة على حب من أحسن إليها، فكيف بمن كانت كل نعمة فى الوجود منه وحده سبحانه؟

المطلب الثالث

المحبة أصل العبودية وروحها

إذا تدبر المسلم كتاب الله تعالى، ونظر في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وجد أن جميع العبادات ترجع إلى أصل واحد، وأن ذلك الأصل هو محبة الله سبحانه وتعالى، فما من عبادة شرعت إلا لتزداد بها هذه المحبة، وما من معصية حرمها الله إلا لأنها تنقصها أو تفسدها.

ولهذا كانت المحبة أعظم أعمال القلوب، بل هي الأصل الذي تتفرع عنه سائر الأعمال، ولذلك قرر أئمة أهل السنة أن حقيقة العبادة لا تقوم إلا على اجتماع كمال المحبة مع كمال الذل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فالعبادة تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له، فمن خضع لإنسان مع بغضه له لم يكن عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، حتى يكون الله أحبَّ إليه من كل شيء، ويكون الله أعظم عنده من كل شيء.»[1]

(١) انظر، مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية).

وهذا من أدق ما قيل في بيان حقيقة العبادة؛ إذ أبطل رحمه الله طرفين منحرفين:

فأبطل عبادة من يعمل الطاعات خوفًا مجردًا لا يصاحبه حب لله تعالى، وأبطل أيضًا دعوى من زعم محبة الله مع ترك أوامره، فإن المحبة المجردة عن الانقياد ليست محبة صادقة، وإنما هي دعوى تحتاج إلى برهان.

ولهذا جاء القرآن يربط بين المحبة والطاعة، فقال سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ سيأتي الكلام عن هذه الآية.

فسماها العلماء آية المحنة؛ لأنها امتحنت كل مدعٍ لمحبة الله، فمن صدق في دعواه ظهرت آثارها في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خالف سنته بطلت دعواه بقدر مخالفته.

قال الحسن البصري رحمه الله:

"زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية."

وقد نقل هذا الأثر جماعة من المفسرين عند تفسير الآية.

ولذلك لم يكن السلف ينظرون إلى كثرة الدعوى، وإنما كانوا ينظرون إلى صدق الاتباع.

ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله كلامًا نفيسًا، خلاصته أن المحبة الصادقة تستلزم موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة الله ثم آثر هواه على أمره، فقد ناقض دعواه بفعله.

ومن هنا يظهر أن الطاعة ليست عبئًا على قلب المحب، وإنما هي لذته، كما أن المعصية ليست مجرد مخالفة، بل هي جرح يصيب محبته لله تعالى.

فكلما ازداد القلب معرفة بالله، ازداد حبًا له، وكلما ازداد حبًا له، ازداد طاعةً وانقيادًا، حتى تصبح الطاعة راحةً للنفس، وقرةً للعين،

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«وجعلت قرة عيني في الصلاة.»**[1]

---

(١) االحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاةِ». رواه الإمام أحمد في المسند (١٣٠٥٧، ١٣٠٧٩). رواه الإمام النسائي في سننه (٣٩٣٩، ٣٩٤٠) باب حُبِّ النساء. رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٨). رواه الطبراني في المعجم الأوسط. رواه أبو يعلى في مسنده. رواه عبد الرزاق في المصنف. رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٠).

ثانياً: درجة الحديث

حكم الحديث عند أهل العلم متفاوت بحسب الطريق:

أ. الطريق الأول: من طريق سلام أبي المنذر (وهو سلام بن سليمان المزني القاري البصري) عن ثابت، عن أنس. وهذا الطريق رواه النسائي وأحمد والبيهقي. قال ابن معين في سلام: «لا بأس به». وقال أبو حاتم: «صدوق صالح». وذكره ابن حبان في الثقات. وقال الإمام أحمد: «حسن الحديث». وقال الذهبي في الميزان: «وإسناده قوي». وقال ابن حجر في التلخيص: «إسناده حسن». وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح في صحيح النسائي.

فكانت الصلاة عنده صلى الله عليه وسلم ليست تكليفًا، وإنما كانت لقاءً، وأنسًا، ومناجاةً، وقربًا من ربه.

وقفة إيمانية

كم من مسلم يظن أن المحبة كلمة تُقال، أو دمعة تُذرف، أو نشيد يُردد، ولو علم أن الله جعل للمحبة ميزانًا لما اغتر بدعواه.

إن المحبة الحقيقية تظهر عند الأمر والنهي، فإذا تعارض هوى النفس مع أمر الله، ثم قدم العبد أمر ربه على شهوته، فقد نطق قلبه قبل لسانه بقوله: إني أحب الله.ولذلك كان الصالحون إذا وجدوا من أنفسهم فتورًا في الطاعة، لم يسألوا: لماذا ضعفت أعمالنا؟ بل كانوا يسألون قبل ذلك: ماذا أصاب محبتنا لله؟ لأنهم علموا أن العمل ثمرة، وأن المحبة هي الأصل، فإذا صلح الأصل، أثمر أحسن الثمار، وإذا ذبل الأصل، لم تغن كثرة الأوراق عن فساد الجذور.

ب. الطريق الثاني: من طريق جعفر بن سليمان عن ثابت، عن أنس. رواه النسائي (٣٩٤٠) والحاكم. قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، لكن خالفه العلماء فى هذا الطريق لوجود سيار بن حاتم العنزي بسنده ، وقد ضعفه ابن المديني والعقيلي وغيرهما، وقالوا: «أحاديثه مناكير».

ج. الطريق الثالث: رواه حماد بن زيد ومحمد بن عثمان عن ثابت مرسلاً . قال الدارقطني: «والمرسل أشبه بالصواب».

الخلاصة: الحديث بمجموع طرقه يقوي بعضها بعضاً، ويصحح بعضها بعضاً، وقد حكم عليه جمع من المحدثين بالحسن، وهو ما عليه الذهبي وابن حجر ومن المعاصرين الألباني رحمهم الله جميعا أما كلمة «ثلاث» التي اشتهرت على الألسنة فهي زيادة غير ثابتة في الروايات الصحيحة؛ قال العراقي: «ليس هي في شيء من كتب الحديث»، وقال الزركشي وغيره بذلك، وقال الدماميني: «لا أعلمها ثابتة من طريق صحيحة».

المطلب الرابع

لماذا كانت محبة الله أصل الدين؟

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة يجد أن الله سبحانه لم يجعل أول ما يطلب من عباده مجرد العمل، وإنما أراد منهم أن يعرفوه أولًا، فإذا عرفوه أحبوه، وإذا أحبوه أطاعوه، وإذا أطاعوه سعدوا في الدنيا والآخرة.

ولهذا كانت المعرفة باب المحبة، وكانت المحبة باب الطاعة، وكانت الطاعة سببًا لرضوان الله وجنته.

ومن هنا كان أول ما دعا إليه جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، حتى تمتلئ القلوب بتعظيمه، فإذا امتلأت بذلك لم تجد طريقًا إلا إلى محبته، ولم تعرف مقصدًا إلا عبادته.

ولهذا قال الله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقد فسر جماعة من السلف العبادة هنا كما سبق ذكره عن ابن القيم رحمه الله تعالى بأنها تتضمن كمال المحبة مع كمال الخضوع، **لأن العبادة إذا تجردت من المحبة كانت تكلفًا، وإذا تجردت من الذل كانت دعوى لا حقيقة لها.**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فالعبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له.»[١]

وهذا التعريف من أجلِّ ما قيل في حقيقة العبادة؛ لأنه جمع ركنيها العظيمين، وأبطل طريقتين منحرفتين:

الأولى: طريق من عبد الله بالخوف وحده، حتى صار ينظر إلى ربه نظر العبد الهارب من سيده، لا نظر المحب المشتاق إلى قربه.

والثانية: طريق من ادعى المحبة، حتى أخرجها عن حقيقة العبودية، وزعم أن المحب لا يحتاج إلى متابعة ولا تكليف.

وأهل السنة وسط بين الفريقين، فهم يعبدون الله محبةً، وخوفًا، ورجاءً، ويجعلون المحبة قائد هذه الأعمال كلها.

ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله:

«القلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فإذا سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، وإذا قطع الرأس مات الطائر، وإذا فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.»[٢]

---

(١) (انظر العبودية،لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.)

(٢) (انظر مدارج السالكين،للإمام ابن القيم الجوزية تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي.)

وهذا من أبدع الأمثلة التي ضربها ابن القيم رحمه الله؛ فإنه جعل المحبة هي الرأس، ولم يجعلها جناحًا، لأن الرأس هو الذي يقود البدن كله، وكذلك المحبة هي التي تقود أعمال القلب جميعًا.

ولذلك فإن من أحب الله حقًا، أحبه سمعه، وأحبه بصره، وأحبته جوارحه كلها، فلا تمتد يده إلى معصية، ولا تنظر عينه إلى حرام، ولا ينطق لسانه إلا بما يرضيه، لأن القلب إذا امتلأ بالمحبة، سرت آثارها في جميع الجوارح.

ولهذا لم يكن عجيبًا أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل:

«ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...»

فجعل ثمرة النوافل محبة الله لعبده، وهل بعد ذلك من غاية؟

بل إذا أحب الله عبدًا، حفظ عليه قلبه، ولسانه، وسمعه، وبصره، ووفقه إلى الخير كله، كما جاء في تمام الحديث القدسي.

وقفة إيمانية

لـو أن النـاس علمـوا أن الله سـبحانه لا يريـد مـن عبـاده مجـرد كثـرة الأعمـال، وإنما يريد قبل ذلك قلوبًا امتلأت بحبه، لتغيرت عباداتهم كلها.

إن الصلاة ليست حركات، وإنما لقاء.

والدعاء ليس كلمات، وإنما مناجاة.

والقرآن ليس حروفًا، وإنما رسالة من المحبوب إلى محبيه.

والذكر ليس ألفاظًا، وإنما أنس بالقرب من الله.

ولهـذا كـان أعظـم النـاس عبـادةً هـم أعظمهـم محبـةً لله، ولـم يكـن أكثـرهم حركـةً فقط.

فإذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله، فانظر إلى منزلة الله في قلبك.

وإذا أردت أن تزيـد عملـك، فابـدأ بزيـادة معرفتـك بربـك، فـإن المعرفـة تثمـر المحبـة، والمحبـة تثمـر الطاعـة، والطاعـة تثمـر القـرب، والقـرب يثمـر لـذة لا يعرفها إلا من ذاقها.

المطلب الخامس

هل محبة الله تعالى فطرية أم مكتسبة؟

خلق الله سبحانه الإنسان مفطورًا على محبة الكمال، وتعظيم الإحسان، والميل إلى الجمال، وهذه الفطرة هي التي تدل صاحبها على ربه إذا سلمت من الانحراف، ولذلك فإن كل قلب لا بد أن يتعلق بمحبوب، فإن لم يتعلق بالله تعلق بغيره.

ولهذا كانت القلوب لا تخلو قط من محبة، وإنما الشأن فيمن يستحق أن يكون أحب إليها.

قال الله تعالى:

﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...»

وهذا يدل على أن أصل الاستعداد لمعرفة الله ومحبته مركوز في النفس، غير أن هذه الفطرة قد تضعف بالشهوات، أو تنطمس بالشبهات، أو تنحرف بتزيين الشيطان.

ومن هنا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن معرفة الله ومحبته مركوزتان في أصل الفطرة، وأن الرسل إنما جاءوا لتكميل الفطرة، وإزالة ما عرض لها من فساد، لا لإنشاء أصل لم يكن موجودًا.

ولهذا كان الأنبياء يذكرون الناس بربهم، ولا يخلقون لهم ربًا جديدًا يعرفونه.

ومن تأمل القرآن وجد أن الله تعالى كثيرًا ما يخاطب الفطرة، فيذكر خلق السماوات، والأرض، والليل، والنهار، والمطر، والجبال، والبحار، وتعاقب الحياة والموت، لأن هذه المشاهد توقظ الفطرة، فإذا استيقظت الفطرة، عرفت ربها، فإذا عرفته أحبته.

غير أن هذه المحبة الفطرية ليست النهاية، وإنما هي البداية.

فإن المحبة تزيد وتنقص.

وتقوى وتضعف.

وترتفع وتنخفض.

ولهذا كانت محبة المؤمن لربه تزداد كلما ازداد علمًا بأسماء الله وصفاته، وتدبرًا لكتابه، واتباعًا لنبيه صلى الله عليه وسلم.

ولهذا كان أعلم الناس بالله أشدهم له محبة.

ولم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس محبة لأنهم رأوا المعجزات فقط، وإنما لأنهم عرفوا ربهم حق المعرفة، فامتلأت قلوبهم إجلالًا، وتعظيمًا، وشوقًا إليه.

ولهذا قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ولم يقل: إنما يخشاه العباد.

لأن العلم الصحيح يورث المعرفة.

والمعرفة تثمر المحبة.

والمحبة تثمر الخضوع.

والخضوع يثمر كمال العبادة.

ومن هنا يتبين أن محبة الله تعالى يجتمع فيها أمران:

الأول: أصل فطري أودعه الله في القلوب السليمة.

والثاني: كمال يكتسبه العبد بزيادة العلم بالله، والتفكر في آلائه، ودوام طاعته، ومجاهدة نفسه، حتى يبلغ منازل المحبين.

ولهذا كان السلف يكثرون من تدبر أسماء الله الحسنى، لأنهم علموا أن القلب لا يستطيع أن يحب من يجهله.

فكلما ازداد العبد معرفة بربه، ازداد حياءً منه، وشوقًا إليه، وتعظيمًا له، ومحبة له.

ولهذا قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله كلامًا معناه:

إن المحبة ثمرة المعرفة، فمن كان بالله أعرف، كان له أحب.

وهذه قاعدة عظيمة، تدور عليها أبواب السير إلى الله كلها.

المطلب السادس

أسباب محبة الله تعالى

إذا كانت محبة الله أشرف المقامات، وأعظم الغايات، فإن الله سبحانه لم يجعل الطريق إليها مجهولًا، ولا أخفى أسبابها عن عباده، بل دلهم عليها في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى يسيروا إليها على بصيرة، ويعبدوه على علم، ويصلوا إلى أعظم نعمة ينالها المؤمن في الدنيا قبل الآخرة، وهي أن يمتلئ قلبه بمحبة ربه جل وعلا.

والمتأمل في نصوص الوحي يجد أن أسباب محبة الله ترجع إلى أصلين عظيمين:

الأصل الأول: معرفة الله تعالى.

والأصل الثاني: دوام طاعته و اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

أولًا: معرفة الله بأسمائه وصفاته

إن القلوب مفطورة على محبة الكمال، ولا كمال على الحقيقة إلا لله سبحانه، فهو الكامل في أسمائه، والكامل في صفاته، والكامل في أفعاله، فإذا عرف العبد ربه حق المعرفة، لم يجد قلبه سبيلًا إلا إلى محبته.

ولهذا كان أعلم الناس بالله أشدهم له حبًا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس محبة لله؛ لأنه أعرفهم به.

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله:

"كلما كان العبد بالله أعرف كان له أحب، وله أعبد."

وهذه قاعدة عظيمة تدور عليها منازل السير إلى الله.

ولذلك امتلأ القرآن الكريم بذكر أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وآثارها في الخلق، حتى يعرف العباد ربهم، فإذا عرفوه أحبوه، وإذا أحبوه عبدوه.

ولهذا كان النظر في أسماء الله الحسنى من أعظم أبواب زيادة المحبة.

فإذا علم المؤمن أن ربه هو:

الغفور...

والرحيم...

والودود...

والحليم...

والشكور...

واللطيف...

امتلأ قلبه رجاءً، وشوقًا، ومحبة.

وإذا عرف أنه:

العظيم...

والجبار...

والقهار...

والعزيز...

والملك...

ازداد إجلالًا وهيبة.

فتجتمع في قلبه المحبة والتعظيم، وهما أصل العبودية.

ثانيًا: تدبر القرآن الكريم

ليس في الأرض كتاب يغرس محبة الله في القلوب أعظم من القرآن الكريم.

لأنه كلام المحبوب سبحانه.

وفي كل آية منه تعريف بالله.

وتذكير بنعمه.

ووصف لرحمته.

وبيان لعظمته.

ودعوة إلى قربه.

ولهذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرؤوا القرآن، لم يكونوا يجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل.

وكانوا يرون أن القرآن لم ينزل لحفظ الألفاظ فقط، وإنما نزل ليحيا به القلب.

ولهذا قال سبحانه:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾.

فكلما ازداد العبد تدبرًا للقرآن، ازداد معرفة بالله، وكلما ازداد معرفة به، ازداد حبًا له.

ثالثًا: كثرة ذكر الله تعالى

ومن أعظم أسباب المحبة دوام ذكر الله.

فإن المحب لا يمل من ذكر محبوبه.

وإذا أكثر العبد من ذكر ربه، صار الله أحب إليه من كل شيء.

ولهذا قال سبحانه:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت.»

فالقلب الذي يخلو من الذكر، ييبس كما تيبس الأرض إذا انقطع عنها المطر.

أما إذا عمر بذكر الله، فإنه يحيا، ويشرق، ويأنس، ويطمئن.

رابعًا: اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يجعل الله طريقًا إلى محبته إلا هذا الطريق.

قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

فهذه الآية هي الميزان الذي توزن به دعاوى المحبة كلها.

فكل دعوى للمحبة لا يصدقها الاتباع، فهي ناقصة بقدر ما نقص من الاتباع.

الفصل الثاني

آيات المحبة في القرآن الكريم

تمهيد

إن أول ما يلفت نظر المتأمل في القرآن الكريم أن الله سبحانه لم يذكر المحبة على نسق واحد، وإنما جاءت موزعة في سور القرآن، تربط العقيدة بالأخلاق، والإيمان بالعمل، والعبادة بالسلوك، حتى يبقى القلب متعلقًا بالله في جميع أحواله.

فمرة يبين سبحانه أنه يحب قومًا، ليحمل النفوس على التشبه بهم.

ومرة يخبر أنه لا يحب آخرين، لينفر القلوب من صفاتهم.

ومرة يجعل محبته جزاءً لأعمال عظيمة.

ومرة يجعل محبته شرطًا للإيمان.

ومرة يجعلها أعظم نعيم يناله العبد.

فالمحبة في القرآن ليست قضية وجدانية مجردة، وإنما هي منهج حياة، وطريق عبودية، وغاية وجود.

ولـذلك كـان أول واجـب على الباحـث أن يتـدبر هـذه الآيـات، لا على سـبيل العـد والإحصـاء، وإنمـا على سـبيل الفقـه والتزكيـة، فـإن القـرآن إنمـا أنـزل ليعمـل بـه، لا ليعدَّ عدد ألفاظه فقط.

ولهـذا سنسـير مـع هـذه الآيـات كمـا يسـير المسـافر في بسـتان، يقـف عنـد كـل زهـرة، ويتأمـل جمالهـا، ويشـم أريجهـا، ثـم ينتقـل إلى أختهـا، حتى ينتهي مـن رحلتـه وقد امتلأ قلبه بمحبة الله سبحانه وتعالى.

آيات المحبة في القرآن الكريم:

المحبة في القرآن الكريم ليست معنى عابرًا يمر بالقلب ثم يزول، وليست دعوى يتزين بها اللسان دون أن يظهر أثرها على الجوارح؛ وإنما هي أصل عظيم من أصول الإيمان، وروح تسري في أعمال العبد كلها، فتمنحها الصدق والإخلاص والحياة.

فبالله تعالى عرف المؤمن طريقه، ومن أجله عبد، وإليه قصد، وعليه توكل، وبه استعان، وفي رضاه رغب، ومن سخطه خاف؛ فكانت محبته سبحانه جامعةً لأعمال القلب، باعثةً على أعمال الجوارح، ومقدمةً على كل محبوب سواه.

وقد عرض القرآن الكريم للمحبة من جوانب متعددة؛ فتحدث عن محبة المؤمنين لربهم، وعن محبة الله تعالى لعباده، وعن المحبة المتبادلة بين الرب سبحانه وأوليائه، وبيَّن العلامة الصادقة لمحبة الله، وكشف زيف المحبة المدعاة التي لا يصحبها اتباع ولا طاعة، وحذَّر من المحبة التي تزاحم محبة الله في القلب، كما بيَّن صفات الطوائف التي نالت محبته سبحانه، وصفات من حُرموا هذه المنزلة العظيمة.

ومن تأمل آيات المحبة في القرآن وجد أنها تدور على أصول جامعة:

أولها: أن محبة الله تعالى أجلُّ أعمال القلوب وأعظمها.

وثانيها: أن محبة العبد لربه لا تصح بمجرد الدعوى، وإنما تظهر حقيقتها في الاتباع والطاعة والتعظيم.

وثالثها: أن محبة الله للعبد غاية يتنافس فيها المؤمنون، ويطلبونها بالإيمان والإحسان والتوبة والطهارة والتقوى والصبر والتوكل والعدل والجهاد في سبيله.

ورابعها: أن القلب لا يستقيم حتى تكون محبة الله فيه أعظم من كل محبة، وأن كل محبة تخالف أمر الله أو تصد عن طاعته فهي محبة مذمومة، وإن كانت في أصلها محبة فطرية مباحة.

ومن هنا كان البدء بآيات المحبة في القرآن الكريم ضروريًّا قبل الحديث تفصيلًا عن صفات الذين يحبهم الله؛ لأن معرفة هذه الصفات لا تنفصل عن معرفة حقيقة المحبة، ولا عن الطريق الذي يسلكه العبد حتى يكون من أهلها.

المبحث الأول

أصول المحبة في القرآن الكريم

المطلب الأول

محبة الله أصل الإيمان وروح العبودية

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]."[١]

وقد قررعند تفسيرقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أن شدة محبتهم ناشئة عن تمام معرفتهم بالله وتوقيرهم وتوحيدهم له.

هذه الآية من أعظم آيات القرآن في بيان منزلة المحبة، وفي الكشف عن الفرق بين توحيد المؤمن وشرك المشرك؛ فإن المشركين لم يكونوا خالين من محبة الله بالكلية، ولكنهم جعلوا لله أندادًا، فأشركوهم معه في المحبة والتعظيم والعبادة، وصرفوا إليهم من خضوع القلب وتعلقه ورجائه وخوفه ما لا يجوز صرفه إلا لله تعالى.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج١، ص٣٤١.

فلم تكن آفتهم أنهم لم يحبوا الله أصلًا، وإنما كانت آفتهم أنهم لم يُفردوه بالمحبة التي تستلزم كمال الذل والخضوع والعبادة، فسوَّوا بينه وبين أندادهم في شيء من خصائص الألوهية؛ ولهذا وصف الله فعلهم بأنه ظلم، وتوعدهم بالعذاب حين تنقطع الأسباب، ويتبرأ المتبوعون من أتباعهم، وتتحول محبتهم الباطلة إلى حسرة وندامة.

أما المؤمنون فقد قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

ولم يقل سبحانه: والذين آمنوا يحبون الله فحسب، وإنما وصفهم بأنهم أشد حبًّا له؛ لأن محبتهم قائمة على معرفته وتوحيده وتعظيمه، ولأنها محبة خالصة لا يزاحمها ندٌّ يُعبد معه، ولا شريك يُصرف إليه شيء من حقه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، مبينًا منشأ شدة محبة المؤمنين لربهم: إن ذلك لكمال معرفتهم بالله وتوقيرهم وتوحيدهم له؛ فهم يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجؤون في أمورهم إليه.[1]

فكلما ازدادت معرفة العبد بربه، وبأسمائه وصفاته، وآلائه ونعمه، ورحمته وحكمته، ازداد له حبًّا وتعظيمًا وافتقارًا؛ لأن القلب مفطور على محبة من أحسن إليه، فكيف بمن كل إحسان وصل إلى العبد فمنه، وكل نعمة نزلت به فمن فضله، وكل بلاء دُفع عنه فبرحمته، وكل ستر أحاطه فمن حلمه، وكل توفيق للطاعة فمن هدايته؟

قال الله تعالى:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

فالعبد يتقلب في نعم الله ليلًا ونهارًا، ويعيش بفضله في كل نفس وحركة وسكون، ولكنه قد يألف النعمة فيغفل عن المنعم، ويرى الأثر ولا يتفكر في مؤثره، ويتمتع بالعطاء ولا يقوم بحق المعطي؛ فإذا استيقظ القلب ورأى يد الإحسان الإلهي ممتدة إليه في كل أحواله، امتلأ حبًّا وحياءً وشكرًا.

ومحبة الله ليست مجرد انفعال وجداني منعزل عن العبادة، بل هي عبادة القلب الكبرى، ومنها تتولد سائر أعماله؛ فالعبد يرجو لأنه يحب، ويخاف لأنه يحب، ويشتاق لأنه يحب، ويتوكل لأنه يحب، ويذكر محبوبه لأنه يحب، ويؤثر رضاه لأنه يحب.

ومن أحب الله حقًّا أحب ما يحبه، وأبغض ما يبغضه، ورضي بحكمه، وانقاد لأمره، واستحيا أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

ولهذا لا تكون محبة الله صادقة مع الإصرار على تقديم الهوى عند التعارض، ولا مع الاعتراض على حكمه، ولا مع التثاقل الدائم عن طاعته؛ فقد يضعف المحب ويذنب، لكنه لا يطمئن إلى مخالفته، ولا يستريح بعيدًا عن محبوبه، بل يظل قلبه يطالبه بالرجوع، حتى يعود تائبًا منكسرًا.

إن الفرق عظيم بين من يطيع الله وهو يرى الطاعة حملًا ثقيلًا يريد أن يتخلص منه، وبين من يطيعه وهو يرى في الطاعة طريقًا إلى رضاه وقربه. الأول

يتحرك بجسده وقلبه بعيد، والثاني يسبقه قلبه إلى مولاه قبل أن تتحرك جوارحه.

من دلالات الآية

تدل الآية على أن المحبة قد تكون عبادة؛ ولذلك ذم الله من سوَّى غيره به فيها. أما المحبة الطبيعية، كمحبة الوالد لولده، والزوج لزوجه، والإنسان لوطنه وماله، فليست مذمومة في أصلها، وإنما تذم إذا قُدِّمت على محبة الله، أو حملت صاحبها على معصيته، أو منعته من أداء حقه.

كما تدل على أن الإيمان ليس معرفة عقلية مجردة، بل تصديق ومحبة وانقياد؛ فمن عرف الله ولم يحبه، أو ادعى محبته ولم ينقد لأمره، لم يحقق حقيقة العبودية التي خُلق من أجلها.

وتدل كذلك على أن قوة المحبة تابعة لقوة المعرفة؛ فكلما كان العبد بالله أعرف كان له أحب، وكلما كان بنعمه أبصر كان له أشكر، وكلما عرف كماله وجلاله وجماله كان له أعظم تعظيمًا وأشد شوقًا.

وتدل الآية أيضًا على أن المحبوبات الباطلة تنقلب يوم القيامة حسرات؛ فكل رابطة قامت على معصية الله تنقطع، وكل محبة صدت عن سبيله تتحول عداوةً وندامة، ولا يبقى للعبد إلا ما كان لله وفي الله وعلى مراد الله.

أثر الآية في تربية القلب

تدعونا هذه الآية إلى أن نسأل أنفسنا بصدق:

من الذي يملك أعظم مساحة في قلوبنا؟

ومن الذي نحرص على رضاه إذا تعارض رضا الناس مع رضاه؟

وأي الأمرين نقدم إذا تعارض أمر الله مع رغبة النفس؟

فليس ميزان المحبة ما يقوله اللسان في لحظة تأثر، وإنما ميزانها ما يختاره القلب عند التزاحم، وما تقدمه النفس عند التعارض، وما يثبت عليه العبد حين تشتد الفتنة.

إن المحبة الصادقة لا تعني أن العبد لا يضعف، ولكنه إذا ضعف عاد، وإذا أذنب تاب، وإذا غفل تذكر، وإذا بَعُد اشتاق، وإذا ذُكِّر بربه رق قلبه، ولم يرض لنفسه أن تستقر في طريق يعلمه مبعدًا عن مولاه.

وقفة مع القلب

يا من تقول: إنك تحب الله، فتش في مواطن اختيارك، لا في كلمات لسانك.

انظر إلى صلاتك حين يناديك الله إليها، وإلى عينك حين يعرض لها الحرام، وإلى لسانك حين تقدر على الغيبة والكذب، وإلى مالك حين يناديك الواجب، وإلى قلبك حين تتعارض محبة الله مع شهوة عاجلة.

فهناك تظهر حقيقة المحبة.

وليس المقصود أن تيأس كلما رأيت تقصيرك، وإنما المقصود أن تعرف موضع الداء، ثم تقبل على باب محبوبك؛ فربك الذي أمرك أن تحبه هو الذي يفتح لك أبواب معرفته، ويعينك على طاعته، ويطهر قلبك من مزاحمة الأغيار.

فقل بصدق:

ارزقني قلبًا يحبك، ويحب ما تحب، ويؤثر رضاك على رضا نفسه والناس أجمعين.

المطلب الثاني:

اتباع الرسول ﷺ برهان صدق المحبة

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٢، عند تفسير سورة آل عمران، الآية ٣١. ونصه يقرر أن اتباع الطريقة المحمدية هو المعيار الحاكم على صدق دعوى المحبة.

هذه الآية ميزان المحبة الصادقة، والحد الفاصل بين المحبة التي يصدقها العمل، والدعوى التي يكذبها السلوك؛ فقد جعل الله تعالى اتباع رسوله ﷺ البرهان العملي على محبته.

فلم يترك سبحانه دعوى المحبة إلى عواطف أصحابها، ولم يجعل علامة صدقها كثرة الكلام عنها، ولا مجرد التأثر عند سماع المواعظ، وإنما قال:

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾.

فالاتباع هو الشاهد، والطاعة هي البرهان، والسير على هدي الرسول ﷺ هو الطريق إلى نيل محبة الله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:عند تفسيره هذه الآية

«هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية».

فمن أحب الله اتبع رسوله ﷺ؛ لأن الرسول هو الذي عرَّف الخلق بربهم، وبلَّغهم كلامه، ودلهم على طريق رضاه، وبيَّن لهم ما يحبه وما يكرهه. ولا يمكن لمن يزعم محبة الله أن يعرض عن رسوله، أو يقدم على هديه رأيًا أو هوى أو عادة.

ولم يقل الله تعالى: فاتبعوني تصدقوا في محبتكم فحسب، وإنما وعدهم بما هو أعظم فقال:

﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

فالعبد يطلب أن يكون محبًّا لله، ولكن المنزلة الأعظم أن يكون محبوبًا لله؛ لأن محبة العبد لربه سعادته وعبادته، أما محبة الله لعبده فهي سبب توفيقه وحفظه وقبوله وهدايته.

ثم أضاف سبحانه إلى محبته مغفرة الذنوب فقال:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

فجمع لمن صدق في الاتباع بين أعظم مطلوبين: محبة الله ومغفرته. ينال المحبة التي تقربه، والمغفرة التي تمحو ما يعوقه عن السير.

والاتباع المقصود ليس انتقاء ما يوافق رغبات النفس وترك ما يخالفها، وإنما هو اتباع النبي ﷺ في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والمعاملات، وفي الظاهر والباطن، وفي المنشط والمكره، وفيما تحبه النفس وفيما يشق عليها.

وليس معنى هذا بلوغ العصمة من الذنوب؛ فكل بني آدم يخطئون، ولكن الصادق في الاتباع إذا أخطأ رجع إلى السنة، ولم يجعل خطأه دينًا، ولم يبرر مخالفته، ولم يقدم هواه على حكم الرسول ﷺ.

ثم جاءت الآية التالية كاشفة لعاقبة الإعراض:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

فدل اقتران الآيتين على أن المحبة والطاعة متلازمتان، وأن التولي عن هدي الرسول يناقض دعوى المحبة؛ إذ لا يجتمع صدق الحب مع التعمد الدائم للإعراض عن أمر المحبوب.

الأثر التربوي للآية

تعيد هذه الآية بناء مفهوم المحبة في القلب؛ فالمحبة ليست لحظة بكاء ثم يعود الإنسان بعدها إلى ما كان عليه، وليست كلمات جميلة تتردد في المجالس، وإنما هي حياة تتشكل على هدي النبي ﷺ.

فإذا أردت أن تعرف مقدار نصيبك من محبة الله، فانظر إلى مقدار تعظيمك لسنة رسوله ﷺ، وفرحك بهديه، واستجابتك لأمره، وحرصك على الاقتداء به.

ولا تقل: إني أحب الله، ثم تجعل هواك حكمًا على شريعته؛ تقبل منها ما وافقك، وترد ما خالف رغبتك.

بل قل: أحب الله، ولذلك أتعلم ما أمر به، وأجاهد نفسي على فعله، وأتعلم ما نهى عنه، وأجاهدها على تركه، وكلما زللت عدت، وكلما قصرت استغفرت، وكلما غلبتني نفسي استعنت بربي عليها.

وبهذا تنتقل المحبة من دعوى على اللسان إلى عبودية في القلب، واستقامة في الطريق، وأثر ظاهر في الحياة.

المطلب الثالث

أعمال تستوجب محبة الله تعالى وتجعل العبد من أوليائه

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذه الآية من أجلِّ آيات المحبة في القرآن الكريم؛ لأنها جمعت بين محبة الله لعباده ومحبة عباده له، ثم كشفت عن الصفات العملية والأخلاقية التي تظهر بها آثار هذه المحبة في حياة المؤمنين.

وقد جاءت الآية في سياق التحذير من الارتداد عن الدين، لتقرر حقيقة عظيمة، وهي أن دين الله لا يتوقف نصره على شخص أو جماعة بعينها، وأن من أعرض عنه واستغنى عن طاعته فإنما يضر نفسه، أما الله تعالى فغني عن العالمين، قادر على أن يستبدل بالمتولين قومًا صادقين يحملون دينه، وينصرون شريعته، ويقومون بحق العبودية له.

قال الإمام الطبري رحمه الله في معنى الآية: إن من يرجع عن دينه الحق ويبدله بالكفر فلن يضر الله شيئًا، وسيأتي الله بدلًا منه بقوم مؤمنين لم يبدلوا ولم

يغيروا، يحبهم الله ويحبون الله. وذكر أن الآية تتضمن وعدًا لأهل الثبات ووعيدًا لمن سبق في علم الله ارتداده وتبديله.

فالآية تملأ قلب المؤمن طمأنينة؛ لأن هذا الدين محفوظ بحفظ الله، منصور بوعده، لا يضره تخاذل المتخاذلين، ولا ارتداد المرتدين، ولا إعراض المعرضين. وإذا تخلى عنه قوم استبدل الله بهم قومًا خيرًا منهم، أصدق إيمانًا، وأقوى عزيمة، وأقوم طريقًا.

وفي الوقت نفسه تبعث الآية في القلب خوفًا عظيمًا؛ لأن العبد لا يأمن على نفسه من الفتنة، ولا يضمن أن يبقى في موضع الخدمة والنصرة ما لم يثبت قلبه الله، ويوفقه للصدق والإخلاص. فليس الشأن أن يبدأ الإنسان الطريق، وإنما الشأن أن يثبته الله عليه حتى يلقاه.

ولهذا كان من دعاء الراسخين في العلم:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

أولًا: قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾

بدأ الله تعالى بذكر محبته لهم قبل ذكر محبتهم له، فقال:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

ومحبة الله تعالى لعباده صفة ثابتة له سبحانه على الوجه اللائق بجلاله، لا تشبه محبة المخلوقين، كما أن ذاته سبحانه لا تشبه ذواتهم، قال تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فنثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه من المحبة، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونؤمن بأن محبته لعبده أجل نعمة ينالها العبد بعد الإيمان؛ إذ إذا أحب الله عبدًا وفقه لطاعته، وشرح صدره لعبادته، وحفظه من الفتن، ويسر له أسباب الخير، وصرف عنه أسباب الشر، ووضع له القبول في قلوب عباده المؤمنين.

وفي تقديم قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ على قوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ إشارة جليلة إلى أن الفضل كله يبدأ من الله؛ فهو الذي خلق العبد، وهداه، وعرَّفه بنفسه، وشرح صدره للإيمان، وألقى في قلبه محبته، ثم وفقه للأعمال التي ينال بها رضاه.

فلم يحب العبد ربه بقوته المستقلة، ولم يصل إليه بذكائه المجرد، وإنما أحبه بعد أن هداه الله إلى معرفته، وأيقظ قلبه من غفلته، وأذاقه حلاوة الإيمان به.

قال الله تعالى في ختام الآية: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

فردَّ الفضل كله إليه؛ لأن المحبة والهداية والثبات والجهاد والشجاعة في الحق ليست مجرد ثمار لقدرات بشرية، وإنما هي منح ربانية يختص الله بها من يشاء من عباده.

ولهذا لا يجوز للسالك إلى الله أن يعجب بعمله، أو يظن أنه وصل إلى منزلة المحبة بجهده وحده؛ بل كلما ازداد قربًا ازداد افتقارًا، وكلما ازداد طاعة ازداد اعترافًا بفضل الله، وكلما رأى توفيقًا قال بقلبه ولسانه:

هذا من فضل ربي.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾

محبة هؤلاء العباد لله ليست كلمة يقولونها، ولا دعوى يرفعونها، وإنما محبة استولت على قلوبهم، فظهرت آثارها في أخلاقهم ومواقفهم وأعمالهم.

أحبوه لأنهم عرفوه، وأحبوه لأنهم عرفوا جميل إحسانه، وأحبوه لأنهم رأوا آثار رحمته في أنفسهم وفي الآفاق، وأحبوه لأنه أهل لأن يُحب لذاته، لما له من كمال مطلق وجمال وجلال وكبرياء.

فاجتمع لهم في محبته النظر إلى إحسانه وإنعامه، والنظر إلى كماله وجلاله، والنظر إلى فقرهم التام إليه؛ فامتلأت قلوبهم تعظيمًا وشوقًا وإنابة.

ومن أحب الله أحب ذكره؛ لأن المحب يكثر من ذكر محبوبه.

ومن أحب الله أحب كلامه؛ لأنه رسالته إلى عباده.

ومن أحب الله أحب لقاءه، واستعد له بالتوبة والعمل الصالح.

ومن أحب الله أحب رسوله ﷺ، واتبع هديه.

ومن أحب الله أحب أولياءه، ورحم عباده، ونصر دينه.

ومن أحب الله أبغض المعصية، لا لمجرد خوف العقوبة، بل لأنها تبعده عن محبوبه، وتحجبه عن لذة القرب منه.

والمحب الصادق قد يقع في الذنب لضعفه البشري، لكنه لا يقيم عليه مطمئنًا، ولا يفرح بمخالفته، ولا يجاهر بها مستخفًّا؛ بل يجد في قلبه ألم البعد، فيدفعه ذلك إلى التوبة والرجوع والانكسار بين يدي الله.

فالمعصية عنده جرح، والاستغفار دواؤه، والتوبة طريق عودته، والقرب من الله غايته.

ثالثًا: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

أول أثر ذكرته الآية لمحبة الله هو حسن معاملة المؤمنين، فقال تعالى:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وليس المراد بالذلة هنا المهانة أو الضعف، وإنما المراد لين الجانب، وخفض الجناح، والرحمة، والتواضع للمؤمنين.

قال الإمام الطبري رحمه الله: معنى قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهم أرقاء عليهم رحماء بهم، وفسر ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنهم رحماء بأهل الإيمان.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: إنهم يرأفون بالمؤمنين ويرحمونهم ويلينون لهم، وإن هذه الذلة ليست من المهانة، وإنما هي سهولة الجانب والانقياد للرحمة، كما تكون الدابة الذلول سهلة منقادة.

فالمحب لله لا يكون متكبرًا على عباد الله، ولا فظًّا غليظًا على أهل الإيمان، ولا يطلب لنفسه العلو عليهم؛ بل يعرف أن المؤمنين أولياء الله، فيكرمهم لإيمانهم، ويرحم ضعيفهم، ويوقر كبيرهم، ويعين محتاجهم، ويستر عيبهم، ويفرح بخيرهم.

وكلما ازداد العبد معرفة بالله ازداد تواضعًا؛ لأنه يرى تقصيره مهما عمل، ويرى فضل الله عليه مهما أُعطي، فلا يجد في نفسه موضعًا للعجب أو الكبر.

وكم من إنسان يتحدث عن محبة الله، ثم يؤذي عباد الله بلسانه، ويستطيل عليهم بعلمه أو منصبه أو ماله، ويحتقر ضعفاءهم، ويشمخ على فقرائهم! ومثل هذا يحتاج إلى أن يراجع صدق محبته؛ لأن المحبة التي لا تثمر رحمة بالمؤمنين محبة ناقصة الأثر.

إن القلب الذي امتلأ بمحبة الله يرق لعباده، ويعلم أن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وأن ميزان التفاضل ليس المال ولا الجاه ولا النسب، وإنما التقوى والعمل الصالح.

رابعًا: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

كما جمع الله لهؤلاء المحبوبين الرحمة بالمؤمنين، جمع لهم العزة والثبات أمام أهل الكفر والعدوان، فقال:

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. فليس لينهم مع المؤمنين ضعفًا، وليس تواضعهم ذلة مهينة، وإنما هم رحماء في موضع الرحمة، أقوياء في موضع القوة، يخفضون جناحهم لإخوانهم، ويعتزون بدينهم أمام من يعاديه.

وقد فسر الطبري رحمه الله قوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بأنهم أشداء عليهم، يظهرون العزة والثبات في مواجهة من خالفهم وحارب دينهم.

وليست العزة المطلوبة ظلمًا ولا عدوانًا ولا تكبرًا؛ فالإسلام لا يأمر بخيانة المخالف، ولا بظلمه، ولا ببخس حقه، وإنما العزة هي ألا يذوب المؤمن في باطل غيره، وألا يتنازل عن دينه طلبًا لرضا الناس، وألا يستحي من شرع الله، وألا يبيع ثوابته من أجل منفعة عارضة.

فالمحب لله عزيز بربه، قوي بإيمانه، ثابت على مبدئه، لا يتلون بحسب المصالح، ولا يغير دينه طلبًا لمدح الناس أو خوفًا من ذمهم.

وهكذا جمع القرآن في شخصية المؤمن بين رقة القلب وقوة الموقف، وبين الرحمة والثبات، وبين التواضع والعزة؛ فلا رحمة تتحول إلى مداهنة في الحق، ولا قوة تنقلب إلى ظلم وقسوة.

خامسًا: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

لم تبق محبتهم حبيسة القلوب، بل تحولت إلى بذل وتضحية وجهاد، فقال تعالى:

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فالمحبة الصادقة تحمل صاحبها على نصرة ما يحبه محبوبه، وبذل ما يستطيع في سبيل رضاه. ومن أحب الله أحب دينه، ومن أحب دينه حرص على ظهوره ونصرته، ودفع عنه الشبهات، ودعا إليه بالحكمة، وبذل في سبيله نفسه وماله وعلمه ووقته.

والجهاد في سبيل الله مفهوم واسع، يدخل فيه جهاد النفس على الطاعة، وجهادها عن المعصية، وجهاد الشيطان، وجهاد أهل الباطل بالحجة والبيان، والقيام بما شرعه الله من أنواع الجهاد وفق أحكام الشريعة وضوابطها.

وقد بيّن الطبري رحمه الله أن المراد أنهم يجاهدون أعداء الله على الوجه الذي أمر الله به وأذن فيه، فلا تصدهم عن القيام بأمره لومة لائم.

وقيد الله الجهاد بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فليس كل قتال جهادًا، وليس كل بذل مقبولًا، وإنما يكون العمل في سبيل الله إذا كان خالصًا له، موافقًا لشرعه، مقصودًا به إعلاء كلمته، لا طلب الرياسة، ولا العصبية للنفس، ولا التشفي والانتقام.

وقد يبذل إنسان كثيرًا، لكن حظه من الإخلاص قليل، وقد يقاتل بحماسة، لكن نيته مدخولة، وقد يدعو إلى الخير، لكنه يريد أن يرى الناس مكانته؛ ولذلك كان تصحيح النية من أعظم ما يحتاج إليه العاملون لنصرة الدين.

سادسًا: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾

هذه الصفة من أعظم علامات صدق المحبة؛ لأن كثيرًا من الناس يعرف الحق، لكنه لا يثبت عليه حين يخشى كلام الناس أو لومهم أو سخريتهم.

أما الذين يحبهم الله ويحبونه فلا تمنعهم لومة اللائمين من القيام بأمره، ولا يحملهم طلب رضا الناس على ترك ما يرضيه.

فهم لا يتعمدون مخالفة الناس طلبًا للشهرة، ولا يغلظون عليهم بحجة الصدع بالحق، وإنما يعرفون الحق، ويلتزمونه بالحكمة والرحمة، ثم لا يتركونه لأن فلانًا غضب، أو لأن جماعة لامت، أو لأن الناس استنكروا.

والفرق عظيم بين الشجاعة والتهور، وبين الثبات والفظاظة، وبين قول الحق والحب في الظهور.

فالشجاع في الله يخلص قصده، ويتعلم حكم الله، وينظر في المصالح والمفاسد المعتبرة، ويختار الكلمة المناسبة والوقت المناسب، ثم لا يترك واجبًا خوفًا من البشر.

أما المتهور فقد يتكلم بلا علم، ويؤذي بلا حكمة، ثم يسمي ذلك شجاعة في الحق.

وقد جعل الطبري رحمه الله معنى الآية أنهم لا يخافون في ذات الله أحدًا، ولا يصدهم لوم الناس عن العمل بما أمرهم الله به. وقرر القرطبي أن هذه الصفة تقابل حال المنافقين الذين يراقبون الدوائر ويخضعون لموازين المصالح المتقلبة.

والمحب الصادق لا يجعل رضا الناس ميزانًا للحق؛ لأن قلوب العباد متقلبة، فمن طلب رضاهم جميعًا طلب ما لا يدرك، ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه الله، أما من أسخط الله ليرضيهم فإنهم لن يغنوا عنه من الله شيئًا.

سابعًا: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

بعد أن ذكر الله هذه الصفات الجليلة، نسبها كلها إلى فضله، فقال:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

فمحبة الله فضل، ومحبة العبد لربه فضل، والرحمة بالمؤمنين فضل، والعزة بالدين فضل، والجهاد في سبيل الله فضل، والثبات أمام لوم الناس فضل.

وإذا كان ذلك كله فضلًا من الله، فإن الطريق إليه يكون بصدق الافتقار، وكثرة الدعاء، والاستعانة بالله، والبعد عن العجب بالنفس والعمل.

قال الإمام الطبري رحمه الله في معنى الآية: إن هذه الصفات التي نعت الله بها عباده فضل تفضل به عليهم، يؤتيه من يشاء من خلقه، وهو سبحانه واسع الجود، عليم بمن يصلح له هذا الفضل.

فالعبد لا يستحق على الله شيئًا بعمله، وإنما يعمل مفتقرًا إلى رحمته، ويرجو القبول وهو يرى منة الله عليه في أصل العمل وفي التوفيق إليه.

ولو وكله الله إلى نفسه لحظة ضاع، ولو تركه إلى قوته ضعف، ولو حرمه هداه تاه؛ ولذلك كان من أعظم دعاء المؤمن:

يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك.

وقفة مع القلب

تأمل الصفات التي جعلها الله علامات لأهل محبته:

حب لله يملأ القلب.

ورحمة بالمؤمنين تظهر في المعاملة.

وعزة بالدين تثبت عند الفتن.

وبذل في سبيل الله يصدق الدعوى.

وشجاعة في الحق تحرر القلب من الخوف من الناس.

ثم اسأل نفسك: أي هذه الصفات أجدها في قلبي وحياتي؟ وأيها أحتاج إلى مجاهدة نفسي لتحصيله؟

ليس المقصود أن يقرأ الإنسان هذه الآية ليبحث عن قوم مضوا فحسب، وإنما ليعرض نفسه عليها، ويرى مقدار نصيبه منها.

فإن وجد خيرًا حمد الله وسأله الزيادة والثبات، وإن وجد تقصيرًا لم يقنط، بل عاد إلى ربه الذي قال:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾

فاسأله من فضله، واصدق في طلب محبته، وخذ بأسبابها، وأكثر من دعائه:

اللهم إنا نسألك حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يقربنا إلى حبك.

خلاصة المطلب

دلت الآية الكريمة على جملة من الحقائق العظيمة:

أن الله غني عن عباده، وأن من أعرض عن دينه استبدل الله به من هو خير منه.

وأن محبة الله لعبده أجل المنازل وأعظم النعم.

وأن محبة العبد لربه ثمرة هداية الله وتوفيقه.

وأن للمحبة الصادقة علامات عملية، من أبرزها الرحمة بالمؤمنين، والعزة بالدين، والجهاد في سبيل الله، والثبات أمام لوم الناس.

وأن بلوغ هذه المنزلة ليس بقوة العبد واستحقاقه المجرد، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهكذا تكشف الآية أن المحبة ليست كلمة تقال، وإنما هي بناء كامل للقلب والشخصية والحياة؛ تبدأ بفضل الله، وتسكن القلب، ثم تظهر رحمةً وعزةً وبذلًا وثباتًا.

المطلب الرابع

تقديم محبة الله ورسوله على سائر المحاب

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

هذه الآية من أعظم الآيات التي تكشف حقيقة المحبة، وتضع ميزانًا دقيقًا يعرف العبد به منزلة ربه في قلبه؛ فقد جمعت أكثر ما تتعلق به النفوس في هذه الحياة، ثم بينت أن هذه المحبوبات، مهما عظمت منزلتها، لا يجوز أن تتقدم على محبة الله ورسوله، ولا أن تحول بين العبد وبين طاعة ربه ونصرة دينه.

ذكرت الآية الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، فجمعت روابط القرابة والأسرة، ثم ذكرت الأموال المكتسبة والتجارة التي يخشى أصحابها كسادها والمساكن التي يرضونها، فجمعت أسباب التملك والمعاش والراحة والاستقرار.

وهذه هي الدوائر الكبرى التي تتحرك فيها حياة الإنسان: أسرته التي يأوي إليها، وماله الذي يطلب به الكفاية، وتجارته التي يخشى عليها، ومسكنه الذي يطمئن فيه، ومجتمعه الذي ينتمي إليه.

ولم يذم الله تعالى هذه الأشياء في ذاتها؛ فمحبة الوالدين والأبناء والأزواج محبة فطرية مشروعة، وجمع المال من طريق حلال أمر مباح، وطلب الرزق وتنمية التجارة واتخاذ المسكن الطيب من نعم الله التي امتن بها على عباده.

ولكن موضع الامتحان يظهر حين تتعارض هذه المحبوبات مع أمر الله، فيكون على العبد أن يختار بين رضا ربه ورضا أهله، أو بين طاعته والمحافظة على ماله، أو بين القيام بالواجب والاستسلام للراحة والدعة.

فهنا تظهر حقيقة ترتيب المحبة في القلب.

أولًا: المحبوبات الفطرية ليست مذمومة في أصلها

لم يقل الله تعالى: إن محبة الآباء والأبناء والأزواج والأموال والمساكن محرمة، وإنما قال:

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فالمذموم هو أن ترتفع محبة هذه الأشياء حتى تتقدم على محبة الله ورسوله، أو تحمل صاحبها على ترك واجب، أو اقتراف محرم، أو التخلف عن القيام بما أوجبه الله عليه.

وقد كان النبي ﷺ يحب أهله وأزواجه وأصحابه ووطنه مكة، وكانت تلك محبة صادقة راسخة، ولكنها لم تكن يومًا حائلة بينه وبين امتثال أمر الله؛ فلما أُمر بالهجرة خرج من أحب البلاد إليه، ولما أُمر بتبليغ الرسالة قام بها مع ما لقيه من أذى قومه، ولما دعاه واجب النصرة والبذل قدَّم رضا الله على راحة النفس واستقرارها.

فالإسلام لا يقتل العاطفة، ولا يحول الإنسان إلى قلب جامد لا يحب أهله ولا يفرح بماله ومسكنه؛ وإنما يهذب المحبة، ويضعها في موضعها، ويجعل المحاب كلها تابعة لمحبة الله.

فيحب المؤمن والديه لأن الله أمره ببرهما، ويحب أبناءه فيربيهم على طاعة الله، ويحب زوجه فيعاشرها بالمعروف، ويحب ماله فيكتسبه من الحلال وينفقه

فيما يرضي الله، ويحب مسكنه لكنه لا يجعله غاية وجوده، ولا يبيع دينه من أجل راحته.

فإذا صارت محبة الأهل طريقًا إلى طاعة الله كانت عبادة، وإذا صار المال عونًا على مرضاته كان نعمة، وإذا صار المسكن موضعًا للذكر والصلاة والتربية الصالحة كان بيتًا مباركًا.

أما إذا تحولت هذه المحبوبات إلى حجاب يحول بين العبد وربه، أو صارت سببًا لترك الصلاة، أو أكل الحرام، أو تضييع الواجبات، أو المداهنة في الدين، فقد انتقلت من كونها نعمًا إلى كونها فتنة.

ثانيًا: كثرة المحبوبات المذكورة تكشف شدة الامتحان.

بدأت الآية بالأقربين إلى القلب فقال تعالى:

﴿آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾.

فالآباء موضع البر والإجلال، والأبناء موضع الشفقة والرحمة، والإخوان موضع النصرة والمؤازرة، والأزواج موضع السكن والمودة، والعشيرة موضع الانتماء والقوة الاجتماعية.

ثم انتقلت الآية إلى الأموال فقال تعالى: ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾.

أي: اكتسبتموها وحصلتموها بتعبكم وجهدكم؛ والإنسان يكون عادة أشد تعلقًا بالمال الذي جمعه بعد تعب ومشقة؛ لأنه يرى فيه ثمرة عمره وسعيه.

ثم قال سبحانه:

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾.

فلم تذكر الآية التجارة وحدها، وإنما ذكرت الخوف الذي يصاحبها؛ لأن التاجر قد يعرف الحق، لكنه يتردد في القيام به خوفًا على ربحه، أو مكانته في السوق، أو علاقته بالناس، أو ضياع صفقة ينتظرها.

ثم قال تعالى:

﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾.

أي: مساكن تستطيبونها وتأنسون بها وتجدون فيها الراحة والاستقرار.

فجمعت الآية بين محبة الأشخاص، ومحبة الأموال، والخوف على مستقبل التجارة، والركون إلى راحة المساكن؛ حتى لا يبقى عذر لمن قدم شيئًا من ذلك على رضا الله.

قال الحافظ ابن كثيررحمه الله: إن الله تعالى توعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله والجهاد في سبيله، وفسر قوله: ﴿مَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ بأنها المساكن التي يحبونها لطيبها وحسنها."[1]

فليست القضية متعلقة بنوع واحد من التعلق الدنيوي، وإنما بكل محبوب يمكن أن يزاحم محبة الله في القلب.

ثالثًا: محبة الله هي المحبة الحاكمة

محبة الله تعالى ليست مجرد محبة تضاف إلى سائر المحاب، فتكون واحدة منها، وإنما هي المحبة الكبرى التي تحكم جميع محاب العبد وتوجهها.

فالمؤمن يحب الله لذاته، ولما له من كمال الجلال والجمال، ويحبه لإحسانه وإنعامه، ويحبه لأنه خالقه وربه ومالكه ورازقه وهاديه.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٤، ص١٢٤. وقد ذكر أن الآية وعيد لمن آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله والجهاد في سبيله.ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٢٤.

ثم يحب كل ما يحبه الله تبعًا لمحبته له؛ فيحب رسوله ﷺ لأن الله اصطفاه وأرسله، ويحب القرآن لأنه كلامه، ويحب الطاعة لأنها تقرب إليه، ويحب المؤمنين لأنهم أولياؤه، ويحب الأعمال الصالحة لأنها سبب رضاه.

وبهذا تصبح محبة الله أصلًا تتفرع عنه المحاب كلها، لا عاطفة معزولة عنها.

فإذا أحب العبد أهله على وجه يقربه من الله، كانت محبتهم من تمام محبته لله، وإذا أحب ماله ليستعين به على الطاعة، كان ذلك من المحبة المحمودة، وإذا أحب عمله لأنه يكف به نفسه عن الحرام وينفع به الناس، كان مأجورًا على قصده.

أما إذا طلب رضا أهله بسخط الله، أو اكتسب المال من الحرام، أو ترك أمر الله حفاظًا على تجارته، أو أقام في موضع يفتن فيه عن دينه من أجل مسكن يحبه، فقد جعل المحبة التابعة منازعة للمحبة الأصلية.

والمؤمن لا يُطلب منه أن يجرد قلبه من كل محبوب سوى الله، وإنما يُطلب منه ألا يحب شيئًا محبة تخرجه عن طاعة الله، وأن تكون محابُّه كلها واقعة تحت حكم الشرع.

رابعًا: محبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله وبرهان عليها

قال تعالى:

﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فقرن محبة رسوله ﷺ بمحبته؛ لأن طريق معرفة الله وعبادته لا يكون إلا بما جاء به الرسول ﷺ، ولأن طاعته من طاعة الله، قال تعالى:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ومحبة النبي ﷺ ليست مجرد إعجاب بشخصيته، أو تأثر بسيرته، وإنما هي محبة إيمانية تثمر تعظيم سنته، وتصديق خبره، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، والدفاع عن شريعته، وتقديم حكمه على الهوى والعادات.

فمن زعم محبته ﷺ ثم أعرض عن هديه كلما خالف رغباته، فقد ناقض عمله دعواه.

ولا يلزم من محبة النبي ﷺ المحمودة أن تكون من جنس محبة الله أو مساوية لها؛ فمحبة الله محبة عبادة وتأله وخضوع، وهي حق خالص له سبحانه، أما محبة الرسول ﷺ فهي محبة تابعة لمحبة الله، أوجبها الله وأمر بها، وهي من أجل أعمال الإيمان.

فلا مساواة بين حق الخالق وحق المخلوق، وإن قرن الله طاعة رسوله بطاعته ومحبة رسوله بمحبته؛ لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله، ودالٌّ عليه، وقائد الخلق إلى طريق رضاه.

خامسًا: قوله تعالى: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾

ذكرت الآية الجهاد في سبيل الله؛ لأن المحبة الصادقة لا تقف عند مشاعر القلب، وإنما تدفع صاحبها إلى البذل والتضحية ونصرة الحق.

والمراد بالجهاد هنا ما شرعه الله لإعلاء كلمته ونصرة دينه، وفق أحكام الشريعة وضوابطها، لا وفق الأهواء والانفعالات.

وقد نزلت الآية في سياق الحديث عمن قدموا الإقامة مع الأهل والمحافظة على الأموال والتجارات على الهجرة ونصرة الدين؛ فبين الله أن صدق الإيمان يقتضي تقديم أمره حين يقع التعارض.

ويدخل في المعنى العام جهاد العبد نفسه على الطاعة، وجهادها عن المعصية، وبذل العلم والمال والوقت في نصرة الدين، والدعوة إلى الله بالحكمة، والصبر على أذى الطريق.

فكم من إنسان يحب الخير لكنه لا يريد أن يبذل له شيئًا، ويحب الدعوة لكنه لا يضحي من أجلها بوقت أو مال، ويحب الطاعة ما دامت لا تعارض راحته!

لكن المحبة التي لا تحمل على شيء من البذل تبقى دعوى ضعيفة؛ لأن من أحب شيئًا آثره، ومن عظمت محبته هان عليه ما يبذله في سبيل محبوبه.

سادسًا: قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيد شديد

قال الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

أي: انتظروا ما يأتي به الله من عقوبته وحكمه فيمن قدَّم هذه المحبوبات على طاعته.

وهذا من أشد أساليب الوعيد؛ لأن الله لم يذكر عقوبة محددة، بل ترك الأمر مطلقًا مهيبًا:

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

وقد فسر ابن كثير رحمه الله قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بمعنى: انتظروا ما يحل بكم من عقابه ونكاله.

فدل ذلك على خطورة أن تستقر الدنيا في القلب حتى تصبح أحب إلى العبد من الله ورسوله، وأثقل في ميزانه من أمر الدين.

ولا يعني هذا أن كل من وقع منه تقصير عارض يكون داخلًا في الوعيد على الدرجة نفسها؛ فقد يضعف المؤمن أو تغلبه نفسه، ثم يندم ويتوب ويجاهدها. وإنما الخطر في أن يختار العبد الدنيا اختيارًا مستقرًّا، ويعرض عن أمر الله، ويرضى بتقديم محبوباته عليه من غير ندم ولا رجوع.

سابعًا: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

ختم الله الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

والفسق هو الخروج عن الطاعة؛ فهؤلاء خرجوا عن مقتضى الإيمان والطاعة حين قدموا محبوباتهم الدنيوية على أمر الله ورسوله.

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسيرها: إن الله لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته والواقعين في معصيته."[1]

وهذه الخاتمة تبين أن تقديم الدنيا على أمر الله ليس مجرد خطأ في ترتيب الأولويات، وإنما انحراف في مسار القلب قد يحرم صاحبه توفيق الهداية ما دام مصرًّا عليه.

فالطاعة تفتح أبواب الهداية، والمعصية المستقرة تحجب القلب عنها، وكلما قدم العبد مراد الله على مراد نفسه زاده الله هدى وثباتًا، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

متى تظهر حقيقة المحبة؟

لا تظهر حقيقة المحبة عند غياب التكاليف، ولا حين تتفق رغبة النفس مع أمر الله؛ وإنما تظهر عند التعارض.

تظهر عندما يدعوك أهلك إلى ما لا يرضي الله، فتبرهم وتحسن إليهم، لكنك لا تطيعهم في معصيته.

وتظهر عندما تعرض عليك منفعة مالية محرمة، فتتركها وإن كانت نفسك محتاجة إليها.

---

(١) لطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١٤، ص٩٣، عند تفسير سورة التوبة، الآية ٢٤.

وتظهر عندما تكون التجارة رابحة، لكن فيها غش أو ربا أو ظلم، فتؤثر الحلال وإن كان أقل.

وتظهر عندما يدعوك الأذان إلى الصلاة وأنت مشغول بعمل تحبه، فتجيب نداء الله.

وتظهر عندما تتمكن من شهوة محرمة لا يعلم بها أحد، فتتركها لأن الله يراك.

وتظهر عندما تتعارض سنة الرسول ﷺ مع عادة ألفها الناس، فتختار الهدي مع الحكمة وحسن الخلق.

فالمحبة ليست ما يقوله الإنسان حين لا يخسر شيئًا، وإنما هي ما يقدمه حين يكون للاختيار ثمن.

التوازن بين الحقوق

لا تعني الآية أن يهمل المؤمن أسرته بحجة تقديم محبة الله، أو يضيع أموال الناس وحقوقهم بحجة التفرغ للعبادة، أو يترك الكسب الحلال، أو يسيء إلى والديه وأقاربه.

فالله الذي أمر بتقديم محبته هو الذي أمر ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن عشرة الزوج، وتربية الأبناء، وأداء الأمانات، والسعي في طلب الرزق.

وتقديم محبة الله يكون بأداء هذه الحقوق كما أمر الله، لا بإضاعتها.

وقد يظن الإنسان أنه يقدم حق الله، وهو في الحقيقة يتبع هواه؛ كمن يهمل أهله وواجباته ثم يسمي ذلك زهدًا أو انقطاعًا للعبادة. وليس هذا من المحبة

الصادقة؛ لأن المحب الصادق يعبد الله على مراده سبحانه، لا على ما تهواه نفسه.

فمن محبة الله أن تعطي كل ذي حق حقه، وأن ترتب الواجبات كما رتبها الشرع، وألا تجعل عبادة مستحبة سببًا في تضييع واجب محتم.

وقفة مع القلب

يا من امتلأ قلبه بمحبة أهله وأولاده وماله ومسكنه، ليس المطلوب منك أن تطرد هذه المحبة من قلبك، وإنما أن ترفع فوقها محبة الله.

أحب أهلك، ولكن لا تعص الله من أجلهم.

وأحب أولادك، ولكن لا تجمع لهم الحرام.

وأحب مالك، ولكن لا تمنع حق الله فيه.

وأحب تجارتك، ولكن لا تجعل الخوف على ربحها سببًا لبيع دينك.

وأحب مسكنك ووطنك، ولكن تذكر أن المسكن الباقي ليس هنا، وأن المؤمن لا يبيع آخرته من أجل راحة تنقضي.

سل نفسك عند كل تعارض:

أي المحبوبين أقدم؟

وأي الرضاين أطلب؟

وأي الخسارتين أخشى: خسارة الدنيا، أم خسارة القرب من الله؟

قد يترك العبد شيئًا يحبه لله، فيجد في قلبه ألم الترك، لكن الله يعوضه أنسًا وطمأنينة وإيمانًا. وقد يحتفظ بشيء من الدنيا على حساب دينه، فيظن أنه ربحه، وهو في الحقيقة قد خسر من قلبه ما هو أعظم منه.

فلا تجعل النعمة التي وهبها الله لك حاجزًا بينك وبينه، ولا تستعمل عطاءه في معصيته، ولا تقدم من تحبهم على من خلقك وخلقهم، ورزقك ورزقهم، وبيده قلبك وقلوبهم.

وقل بقلب صادق:

اللهم اجعل حبك أحب إليَّ من نفسي وأهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، وأعنِّي على تقديم رضاك على هوى نفسي ومحبة خلقك.

خلاصة المطلب

تقرر هذه الآية جملة من الحقائق العظيمة:

أن محبة الأهل والمال والتجارة والمساكن محبة فطرية مباحة في أصلها.

وأن المذموم هو تقديم هذه المحبوبات على محبة الله ورسوله وطاعتهما.

وأن محبة الله هي المحبة الأصلية الحاكمة على سائر المحاب.

وأن محبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله، وتظهر في اتباع سنته وطاعة أمره.

وأن صدق المحبة يتجلى عند تعارض أمر الله مع رغبات النفس ومصالح الدنيا.

وأن تقديم الدنيا على الدين سبب للفسق والحرمان من التوفيق.

وأن المؤمن لا يهمل حقوق أهله ودنياه، وإنما يؤديها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه.

فالآية لا تدعو إلى إلغاء المحبوبات، وإنما تدعو إلى ترتيبها؛ حتى يكون الله ورسوله أحب إلى القلب من كل شيء، وتكون سائر المحاب تابعة لهذه المحبة الكبرى، خادمة لها، لا منازعة إياها.

المطلب الخامس

الابتلاء محكُّ صدق المحبة والثبات عليها

قال الله تعالى:

﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

بعد أن بيَّن القرآن الكريم أن محبة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على سائر المحاب، جاء الابتلاء ليكشف حقيقة هذا التقديم؛ لأن الإنسان قد يدعي المحبة ما دامت الطريق سهلة، والمصالح محفوظة، والنفس آمنة، ولكنه إذا عُرض عليه ما يخالف هواه، أو أصابه ما يكره، أو طُلب منه أن يضحي بشيء يحبه، ظهرت منزلة الله الحقيقية في قلبه.

فالدعوى يتسع لها اللسان، أما الصدق فلا يظهر إلا عند الامتحان.

وكم من إنسان تكلم عن الإيمان والمحبة في ساعات العافية، فلما تغيرت عليه الأحوال، أو تأخر عنه ما يرجوه، أو أصابه ما يكره، اضطرب قلبه، وساء ظنه بربه، وضعفت طاعته! وكم من عبد كان خامل الذكر بين الناس، لكنه ثبت حين اضطرب غيره، وصبر حين جزع غيره، ورضي بالله حين اعترض غيره، فظهر في البلاء صدقه، وارتفعت عند الله منزلته.

ولهذا جاءت الآية في صورة استفهام إنكاري: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾.

أي: أظن الناس أن مجرد قولهم: آمنا، يكفي لتركهم من غير اختبار وابتلاء؟

إن سنة الله تعالى لا تجري بذلك؛ لأن الإيمان ليس كلمة مجردة، والمحبة ليست شعورًا عابرًا، وإنما هما عهد وعبودية وثبات، ولا بد أن تمر الدعوى بمواطن يظهر فيها الصادق من الكاذب، والثابت من المتردد، ومن يعبد الله لذاته وطلب رضاه ممن يعبده طلبًا لمصلحة دنيوية عاجلة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: إن معناها أن الله تعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، وربط بينها وبين الآيات التي تبين أن دخول الجنة لا يكون من غير ابتلاء بالشدائد والمكاره[1]

(١) .[1]ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٦، عند تفسير سورة العنكبوت، الآيتين ٢-٣.

أولًا: الابتلاء سنة ماضية في أهل الإيمان

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

فالابتلاء ليس أمرًا خاصًّا بهذه الأمة، ولا حادثة استثنائية تقع لبعض الناس دون بعض، بل هو سنة ماضية في عباد الله منذ أرسل الرسل وأنزل الكتب.

ابتُلي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وابتُلي أتباعهم، وأوذي الصالحون، وضُيِّق على المؤمنين، وفقد بعضهم الأهل والمال والوطن، ولاقوا من الشدائد ما ظهر به صدقهم وثباتهم.

وليس وقوع البلاء بالمؤمن دليلًا على أن الله قد أبغضه، كما أن كثرة النعم الدنيوية ليست دليلًا قاطعًا على محبة الله لصاحبها؛ فقد تكون النعمة ابتلاءً كما تكون الشدة ابتلاءً، قال الله تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالعبد يبتلى بما يكره، ليظهر صبره وحسن ظنه وثباته، ويبتلى بما يحب، ليظهر شكره واعترافه بالنعمة واستعماله لها في طاعة المنعم.

وقد يكون الابتلاء بالعطاء أشد من الابتلاء بالمنع؛ لأن كثيرًا من الناس يعرفون افتقارهم إلى الله عند الشدة، فإذا انكشفت الشدة وأقبلت الدنيا نسوا من كشفها، واستغنوا بالنعمة عن المنعم، واستعملوا العطاء في معصية من أعطاهم.

ويُبتلى الإنسان بالمال: أيشكر أم يطغى؟

ويبتلى بالفقر: أيصبر ويستعف أم يتسخط ويتناول الحرام؟

ويبتلى بالصحة: أيستعملها في الطاعة أم يبددها في الغفلة؟

ويبتلى بالمرض: أيحسن الظن بربه أم يعترض على قضائه؟

ويبتلى بالعلم: أيتواضع وينفع به أم يتكبر ويطلب به العلو؟

ويبتلى بالجهل: أيسأل ويتعلم أم يتبع هواه بغير علم؟

ويبتلى بمحبة الناس: أيجعلها عونًا على الخير أم يبيع الحق حفاظًا عليها؟

ويبتلى ببغضهم ولومهم: أيثبت على الحق أم يتركه طلبًا لرضاهم؟

فكل حال يمر بها العبد يمكن أن تكون بابًا من أبواب الامتحان، والسعيد من عرف موضع الابتلاء، واستعان بالله على أداء العبودية التي تليق به.

ثانيًا: معنى الفتنة في الآية

قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

والفتنة هنا بمعنى الاختبار والابتلاء؛ أي: أيُتركون من غير أن يمتحنوا بما يتبين به صدق إيمانهم وثباتهم؟

وقد فسر البغوي رحمه الله الآية بأن معناها: أيظن الناس أن يتركوا بغير اختبار ولا ابتلاء لمجرد قولهم: آمنا؟[1]

وأصل الفتنة في اللغة يدور على الاختبار، ومنه عرض الذهب على النار لتمييز خالصه من زائفه. وكذلك ترد الفتن على القلوب، فتُظهر ما استقر فيها، وتكشف مقدار رسوخ الإيمان والمحبة.

وليس معنى ذلك أن الله تعالى كان لا يعلم بحال عباده قبل ابتلائهم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فهو سبحانه قد أحاط بكل شيء علمًا، وعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ولكن الابتلاء يُظهر في عالم الواقع ما سبق به علم الله، فتقوم الحجة على العباد بأعمالهم التي وقعت منهم، ويتميز الصادق من الكاذب تميزًا ظاهرًا، ويجازى كل إنسان بما قدمه واختاره.

---

(١) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، عند تفسير سورة العنكبوت، الآية ٢.

فقال تعالى:

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾.

أي: ليظهر صدق الصادقين وكذب الكاذبين، ويقع ما سبق به علم الله منهم، ويتميز بعضهم من بعض.

وهذا من كمال عدل الله تعالى؛ فإنه لا يعاقب العبد على مجرد ما علم أنه سيفعله قبل أن يفعله، بل يبتليه ويمنحه الإرادة والقدرة، ثم يقع منه العمل الذي يختاره، فتقوم عليه الحجة، ويكون الجزاء موافقًا للعمل.

ثالثًا: لماذا يكون الابتلاء دليلًا على صدق المحبة؟

المحبة الصادقة تحمل صاحبها على احتمال المشقة في طريق محبوبه، وتقديم رضاه على رغبات النفس؛ أما المحبة التي تنهار عند أول مكروه فمحبة لم تتمكن من القلب.

فالإنسان قد يقول: أحب الله، ثم يرسل الله إليه أمرًا يخالف شهوته، فيظهر هل يحب الله حقًّا أم يحب هواه.

وقد يقول: توكلت على الله، ثم يتأخر عنه ما طلب، فيظهر هل كان متعلقًا بالله أم متعلقًا بالنتيجة التي يريدها.

وقد يقول: رضيت بالله ربًّا، ثم يجري عليه قدر مؤلم، فيظهر هل يرضى بالله في السراء والضراء، أم لا يعرف الرضا إلا عندما توافق المقادير أمانيه.

وقد يقول: قدمت محبة الله على الناس، ثم يلومه الناس في التزام الحق، فيظهر هل يخاف الله أم يخافهم.

ومن هنا كان الابتلاء كاشفًا لا منشئًا؛ فهو يكشف ما في القلب، ويخرج مكنونه إلى واقع العمل.

وقد يكون في قلب العبد ضعف لا يعرفه عن نفسه، فيأتي الابتلاء فيكشفه له؛ لا ليهلكه، ولكن ليتدارك نفسه، ويعرف موضع مرضه، ويلجأ إلى ربه في طلب الثبات والعافية.

فالابتلاء مرآة يرى العبد فيها حقيقة نفسه.

قد يظن أنه صابر، حتى ينزل به ما يؤلمه.

ويظن أنه زاهد، حتى تعرض عليه الدنيا.

ويظن أنه مخلص، حتى ينافسه غيره في المكانة.

ويظن أنه متوكل، حتى تضيق الأسباب.

ويظن أنه لا يخشى إلا الله، حتى يقف وحده أمام لوم الناس.

فإذا عرف ضعفه لم ييأس، وإنما قال: يا رب، قد ظهر لي عجزي، فلا تكلني إلى نفسي، وأصلح قلبي، وثبتني على طاعتك.

رابعًا: العبادة على حرف

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

تصور هذه الآية نموذجًا مضادًّا للمحب الصادق؛ إنه إنسان لم يدخل في العبودية ثابت القدم، وإنما وقف على طرفها، وربط استقامته على الدين بما يحصل له من المنافع الدنيوية.

ومعنى قوله:

﴿عَلَى حَرْفٍ﴾

أنه يعبد الله على طرف، غير متمكن ولا ثابت؛ كمن يقف على حافة جبل، يمكن أن يسقط عند أدنى حركة.

وقد نقل ابن كثير رحمه الله عن مجاهد وقتادة وغيرهما تفسيرها بأنه يعبد الله على شك، وبيّن أن هذا الرجل إن وجد ما يحبه استقر ظاهرًا، وإن نزل به ما يكره رجع وانقلب[1]

(١) .3ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٥، عند تفسير سورة الحج، الآية ١١.

فهذا لا يعبد الله لأنه ربه المستحق للعبادة، ولا يحبه محبة تدفعه إلى الثبات على أمره، وإنما ينظر إلى الدين بمنظار المنفعة الدنيوية:

فإن اتسع رزقه قال: هذا دين حسن.

وإن تأخر رزقه قال: ما انتفعت من ديني.

وإن شُفي من مرضه اطمأن.

وإن طال مرضه أساء الظن.

وإن أجاب الله دعاءه في الوقت والصورة اللذين أرادهما أقبل.

وإن تأخرت الإجابة أو جاءت على غير ما يريد أعرض.

وهذه ليست عبادة لله، وإنما هي عبادة للحظوظ من خلال الدين؛ فالدين عنده وسيلة لتحصيل الدنيا، فإن جاءت الدنيا ثبت، وإن تأخرت انقلب.

وقد روى ابن كثير في تفسير الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرجل كان يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم يقع له ذلك قال: هذا دين سوء.

وهذه الصورة وإن وردت في قوم مخصوصين، فإن معناها يتكرر في حياة كثير من الناس بصور مختلفة.

فمن الناس من يقبل على الطاعة لأنه ينتظر بها رزقًا معينًا، أو زواجًا، أو شفاءً، أو نجاحًا، فإذا لم يحصل له ما أراد ترك الطاعة، وكأن له على الله حقًّا يطالبه به.

ومنهم من يتوب من المعصية أيامًا، ثم يقول: دعوت ولم أر أثرًا، ويعود إلى ذنبه.

ومنهم من يظن أن الاستقامة عقد يضمن له ألا يمرض، وألا يفقد محبوبًا، وألا يضيق عليه الرزق، وألا يؤذيه أحد.

وهذا فهم فاسد لحقيقة العبودية؛ فالله تعالى هو الرب والمالك، والعبد عبد في السراء والضراء، وفي العطاء والمنع، وفي الصحة والمرض، وفي الأمن والخوف.

نعبده لأنه ربنا، ولأنه المستحق للعبادة، لا لأننا اشترطنا عليه أن يدير أقدارنا وفق رغباتنا.

خامسًا: الفرق بين المحب الصادق وصاحب العبادة المشروطة

المحب الصادق يفرح بنعم الله ويشكره عليها، ويتألم من البلاء لأنه بشر، لكنه لا يجعل النعمة شرطًا لطاعته، ولا يجعل البلاء مبررًا للانقلاب على ربه.

أما صاحب العبادة المشروطة فيقول بلسان حاله: أعبدك ما دمت تعطيني ما أريد، وتسير الأمور كما أحب.

المحب الصادق يعلم أن الله حكيم، وأن رحمته لا تنحصر في الشيء الذي طلبه، وأن المنع قد يكون عين العطاء، وأن تأخير الإجابة قد يكون خيرًا، وأن البلاء قد يحمل في باطنه من الرحمة والتطهير والتربية ما لا يدركه في ساعته.

أما العابد على حرف فلا يرى من حكمة الله إلا ما وافق هواه، ولا يعرف من الرحمة إلا العافية العاجلة، ولا يفهم من الإجابة إلا حصول الشيء الذي طلبه كما طلبه وفي الوقت الذي حدده.

المحب الصادق يتقلب بين عبادات متعددة:

فإذا أعطاه الله عبده بالشكر.

وإذا منعه عبده بالرضا والصبر.

وإذا أذنب عبده بالتوبة.

وإذا وفقه عبده بالاعتراف بالمنة.

وإذا أبطأ عليه الفرج عبده بحسن الظن والانتظار.

فلا يخرج من العبودية بتغير الأحوال، وإنما ينتقل من عبادة إلى عبادة.

أما العابد على حرف فلا يعرف إلا عبادة واحدة: عبادة الله حين توافق الدنيا رغبته؛ فإذا تغيرت الدنيا ترك العبادة.

سادسًا: الابتلاء لا يعني عدم التألم

ليس الصبر أن يفقد الإنسان الإحساس بالألم، ولا أن تتحول طبيعته البشرية إلى جمود لا يحزن ولا يبكي.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا أشد الناس إيمانًا ومحبة لله، ومع ذلك وجدوا ألم المرض، وحزنوا على فقد الأحبة، وضاقت صدورهم من تكذيب أقوامهم، ورفعوا إلى الله شكواهم.

فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الاعتراض على الله، والتسخط على حكمه، وسوء الظن به، وترك ما أوجب بسبب المصيبة.

يجوز للعبد أن يقول: يا رب، إني ضعيف فقوِّني.

وأن يقول: يا رب، قد مسني الضر فارحمني.

وأن يبكي، وأن يطلب الفرج، وأن يأخذ بأسباب العلاج ودفع البلاء.

لكنه لا يقول بقلب معترض: لماذا فعل الله بي هذا؟ وما ذنبي حتى يصيبني؟ ولا يجعل البلاء دليلًا على أن ربه قد ظلمه أو تركه.

فالمحب يتألم، لكنه لا ينقطع.

ويحزن، لكنه لا يسيء الظن.

ويبكي، لكنه يبقى واقفًا على الباب.

ويضعف، لكنه يطلب القوة ممن بيده قوته.

وقد تكون لحظة انكسار صادق بين يدي الله أحب إليه سبحانه من أعمال كثيرة خالطها إعجاب العبد بنفسه.

سابعًا: الابتلاء يحرر المحبة من التعلق بالعطاء وحده

كثير من الناس يعرفون الله من خلال نعمه، وهذا باب عظيم من أبواب المحبة؛ فإن القلب مفطور على محبة من أحسن إليه.

لكن المحبة لا ينبغي أن تقف عند العطايا، بل ترتقي إلى محبة المنعم سبحانه، سواء أعطى العبد ما أراد أو اختار له بحكمته غير ما أراد.

فمن أحب الله لأجل النعمة فقط، خيف عليه أن تضعف محبته عند زوالها.

أما من أحب الله لأنه ربه، ولأنه كامل الأسماء والصفات، ولأنه الحكيم الرحيم، فإن تغير الأحوال لا يقطع صلته به.

قد يحجب الله عن عبده شيئًا من الدنيا، لكن لا يحجبه عن بابه.

وقد يمنعه محبوبًا، لكنه يفتح له من المعرفة والإنابة ما هو أعظم منه.

وقد يؤلمه في جسده، لكنه يحيي قلبه.

وقد يضيّق عليه في الأسباب، حتى لا يبقى في قلبه تعلق إلا بمسبب الأسباب.

فالابتلاء ينقل العبد أحيانًا من محبة عطايا الله إلى محبة الله نفسه، ومن التعلق بما في يده إلى التعلق به سبحانه، ومن طلب الراحة العاجلة إلى طلب رضاه والقرب منه.

ولا يعني ذلك أن يزهد العبد في سؤال الله خير الدنيا والآخرة؛ فقد أمرنا بالدعاء، ووعدنا بالإجابة، ولكن الفرق بين من يطلب العطاء من ربه وهو عبد له، ومن لا يعرف ربه إلا من أجل العطاء.

ثامنًا: الشدة ليست الصورة الوحيدة للابتلاء

قد يظن بعض الناس أن الابتلاء لا يكون إلا بالمرض والفقر وفقد الأحبة، ولكن القرآن دل على أن الخير والشر كلاهما فتنة.

فالمال فتنة، والفقر فتنة.

والصحة فتنة، والمرض فتنة.

والشهرة فتنة، والخمول فتنة.

والقدرة فتنة، والعجز فتنة.

ومحبة الناس فتنة، وبغضهم فتنة.

والنجاح فتنة، والفشل فتنة.

وربما ثبت الإنسان عند المرض، ثم فُتن حين عوفي.

وربما صبر في الفقر، ثم تغير قلبه حين أُغني.

وربما كان متواضعًا حين لم يعرفه الناس، فلما اشتهر طلب التعظيم، وغضب إذا لم يقدم، وصار يعمل من أجل صورته في أعين الخلق.

والعبد محتاج إلى الله في الحالتين؛ يحتاج إليه عند الشدة ليصبر، ويحتاج إليه عند الرخاء ليشكر، وربما كانت حاجته إلى الحفظ في الرخاء أشد؛ لأن الفقير يعرف فقره، أما صاحب النعمة فقد تخدعه قدرته الظاهرة.

تاسعًا: طريق الثبات عند الابتلاء

أول أسباب الثبات أن يعرف العبد ربه؛ فمن عرف أن الله رحيم حكيم عليم، وأنه لا يقدر شيئًا عبثًا، وأن رحمته أوسع من إدراك العبد، ثبت قلبه وإن خفيت عليه الحكمة.

وثانيها: أن يعرف حقيقة الدنيا؛ فهي دار امتحان لا دار جزاء كامل، ومن طلب فيها حياة بلا ألم فقد طلب منها ما لم تخلق له.

وثالثها: أن ينظر إلى ما بقي له، لا إلى ما فقده وحده؛ فكم من نعمة تحيط بالعبد وهو لا يراها لأن عينه وقعت على نعمة واحدة زالت عنه.

ورابعها: أن يكثر من الدعاء والافتقار؛ فالثبات ليس قوة ذاتية يملكها الإنسان متى شاء، وإنما هو توفيق من الله.

وخامسها: أن يتذكر أن البلاء منقطع، وأن العاقبة الباقية للصابرين، وأن أيام الألم مهما طالت محدودة، أما الجزاء فدائم.

وسادسها: أن يصحب أهل الإيمان الذين يذكرونه بالله، ويعينونه على الصبر، ولا يزيدون قلبه اعتراضًا وسوء ظن.

وسابعها: ألا يتخذ القرار في ساعات الاضطراب؛ فقد تدفع شدة الألم الإنسان إلى قول أو فعل يندم عليه، فليهدأ، وليستعذ بالله، وليكثر من الصلاة والذكر، وليؤخر القرارات الكبرى حتى يسكن اضطرابه.

عاشرًا: الجنة لا تنال بمجرد الأماني

قال الله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

فالطريق إلى الجنة ليس طريق الأماني المجردة؛ وإنما هو طريق إيمان وجهاد وصبر وثبات.

وقد بين الإمام الطبري رحمه الله أن معنى الآية: أظننتم أن تنالوا كرامة ربكم قبل أن تختبروا بالشدة والمكاره، حتى يظهر صدق الإيمان والصبر على ما يصيبكم في الله[١]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٧، عند تفسير سورة آل عمران، الآية ١٤٢.

وليس المراد أن الإنسان يدخل الجنة بعمله استقلالًا عن فضل الله ورحمته؛ فالجنة فضل ورحمة، ولكن الله جعل للعمل الصالح والصبر والجهاد أسبابًا لنيل فضله.

فالعمل لا يجعل العبد مستغنيًا عن الرحمة، والرجاء في الرحمة لا يسوغ ترك العمل.

ومن أحب الله لم يستكثر ما يبذله في طريق رضاه، ولم ير طاعته ثمنًا يكافئ نعم الله؛ بل يرى أن توفيقه للطاعة نعمة أخرى تحتاج إلى شكر.

وقفة مع القلب

يا من تقول: أحب الله، لا تخف من أن تكشف لك المحن مقدار صدقك؛ فإن وجدت في نفسك خيرًا فاحمد الله، وإن وجدت ضعفًا فباب الإصلاح مفتوح.

لا تجعل ظهور ضعفك سببًا لليأس، بل اجعله بداية للصدق.

قل: يا رب، كنت أظنني قويًّا فعرفت ضعفي، وكنت أظنني صابرًا فعرفت جزعي، وكنت أظن أن قلبي لا يتعلق إلا بك فرأيت تعلقه بالأسباب؛ فطهر قلبي، وثبتني، ولا تكلني إلى نفسي.

وإذا نزل بك البلاء فلا تجعل أول سؤال في قلبك: متى ينتهي؟

ولكن اسأل أيضًا: ما العبادة التي يريدها الله مني في هذا الموطن؟

هل يريد مني صبرًا؟

أم توبة؟

أم رجوعًا إليه؟

أم قطع تعلق بمخلوق؟

أم ترك معصية؟

أم حسن ظن به؟

أم رحمة بمبتلى كنت لا تشعر بألمه؟

فربما انتهى البلاء وبقيت ثمرته في قلبك نورًا إلى أن تلقى الله.

ولا تعبد الله على حرف، ولا تجعل صلاح الدنيا شرطًا لصلاح علاقتك بربك.

فإن أعطاك فاشكره، وإن منعك فارض بحكمته، وإن ابتلاك فاصبر، وإن أذنبْتَ فتب، وإن ضعفت فاستعن، وإن طال الطريق فلا تترك الباب.

واعلم أن الذي أحببته في العافية هو ربك في البلاء، وأن الذي أكرمك بالعطاء هو الحكيم في المنع، وأن رحمته لم تنقطع عنك لمجرد أن صورتها خفيت عليك.

اللهم إنا نسألك حبك في الرضا والغضب، وفي السراء والضراء، ونسألك قلوبًا ثابتة لا تنقلب عند الفتن، ولا تعبدك على حرف، وترضى بك ربًّا في كل حال.

خلاصة المطلب : دلَّت الآيات على جملة من الحقائق: أن الابتلاء سنة ماضية في أهل الإيمان، ولا يناقض محبة الله لعبده.

وأن دعوى الإيمان والمحبة لا بد أن تمر بمواطن يظهر فيها الصدق والثبات.

وأن علم الله تعالى سابق محيط، وأن الابتلاء يُظهر في عالم الواقع ما سبق به علمه، ويتميز به الصادق من الكاذب.

وأن الابتلاء يكون بالسراء كما يكون بالضراء، وبالعطاء كما يكون بالمنع.

وأن العبادة على حرف هي العبادة غير الراسخة، التي يرتبط استمرارها بحصول المنافع الدنيوية.

وأن المحب الصادق لا يجعل النعمة شرطًا لطاعته، ولا يجعل البلاء مبررًا للانقلاب على ربه.

وأن التألم والحزن لا ينافيان الصبر، وإنما ينافيه الاعتراض على الله وسوء الظن به وترك طاعته.

وأن الجنة لا تنال بمجرد الدعوى والأماني، وإنما بفضل الله ورحمته، مع صدق الإيمان والعمل والصبر والثبات.

فالابتلاء ليس حاجزًا بين العبد ومحبة الله، بل قد يكون طريقًا إلى تحقيقها وتنقيتها؛ إذ يحرر القلب من التعلق بالعطايا، ويرده إلى المنعم، ويكشف ضعفه، ويفتح له باب الافتقار، حتى يعلم أنه لا ثبات له إلا بالله، ولا نجاة له إلا برحمته.

المبحث الثانى

منزلة المحبة في السنة النبوية

لقد جاءت السنة النبوية مؤكدة لما قرره القرآن الكريم من عظيم منزلة المحبة في الإسلام، فبينت أنها أصل الإيمان، وروح العبودية، وعلامة صدق الاتباع، وسبب نيل محبة الله تعالى، كما أوضحت آثارها في حياة المؤمن، وثمراتها في الدنيا والآخرة. ومن تأمل نصوص السنة وجد أنها جعلت المحبة ميزانًا للإيمان، وربطت بين كمالها وكمال العبودية، حتى صارت من أجلِّ أعمال القلوب وأعظمها أثرًا.

المطلب الأول

المحبة أصل الإيمان وكماله

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.»[1]

وهو أصل في بيان أن محبة الله ورسوله ﷺ مقدمة على جميع المحبوبات، وأن كمال الإيمان لا يتحقق إلا بذلك.

قال الإمام النووي رحمه الله:

«معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضا الله ورسوله، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا.»[2]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين.»[3]

---

(١) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، وهذا لفظه. وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم (٤٣)، بلفظ قريب.

(٢) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، ١٣/٢.

(٣) أخرجه البخاري فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، برقم (١٥)، وهذا لفظه.

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين.»

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله:في الفتح

«المراد نفي كمال الإيمان؛ لأن المحبة المذكورة من لوازم الإيمان الكامل.»[1]

وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، برقم (٤٤)، بلفظ:

(١) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز وآخرين، دار المعرفة، ٥٨/١.

المطلب الثاني

المحبة سببٌ لنيل محبة الله تعالى

من أعظم ما بينته السنة النبوية أن محبة العبد لربه ليست دعوى مجردة، وإنما تنمو بالطاعة، وتزداد بالقرب من الله تعالى، حتى يبلغ العبد منزلة المحبوبية، وهي أشرف المنازل التي يتنافس فيها المتنافسون. وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن المحافظة على الفرائض، ثم الإكثار من النوافل، من أعظم أسباب نيل محبة الله عز وجل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى:

«إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه.»[1]

فهو من أصح الأحاديث الواردة في بيان منزلة أولياء الله تعالى، وفضل الفرائض والنوافل، وسبب نيل محبة الله عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق، باب التواضع، برقم (٦٥٠٢)، وهذا لفظه.

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«هذا الحديث أصل عظيم في السير إلى الله تعالى، والوصول إلى ولايته ومحبته.»[١]

ووجه الاستدلال من الحديث أن النبي ﷺ بيَّن أن الطريق إلى محبة الله يبدأ بأداء الفرائض، ثم يترقى العبد بالإكثار من النوافل حتى يفوز بمحبة الله تعالى، فإذا أحبه الله حفظه، ووفقه، وسدده في سمعه وبصره وجميع جوارحه.

ومن السنة أيضًا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.»[٢]

قال الإمام النووي رحمه الله:

«فيه إثبات محبة الله تعالى لعباده الصالحين، ومحبة الملائكة لهم، ووضع القبول لهم في قلوب المؤمنين، وهذه كلها من ثمرات محبة الله لعبده.»[١]

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ٣٤٨/٢.

(٢) أخرجه البخاري،في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢٠٩)، وهذا لفظه.وأخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧)، بلفظ مقارب.

ويظهر من مجموع هذين الحديثين أن محبة الله تعالى ليست منزلة تنال بالأماني، وإنما هي فضل من الله يؤتيه من صدق في عبادته، ولزم فرائضه، وأكثر من نوافله، وأخلص له في السر والعلانية، فإذا أحبه الله أحبه أهل السماء، وألقى له القبول في الأرض، وكانت هذه أعظم ثمرة ينالها المؤمن في حياته.

(١) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، ١٧٨/١٦.

المطلب الثالث

المحبة في الله من أوثق عرى الإيمان

جعلت السنة النبوية المحبة في الله من أجلِّ القربات، وأوثق روابط الإيمان، لأنها تقوم على الإخلاص لله تعالى، لا على مصلحة دنيوية، ولا قرابة نسب، ولا منفعة زائلة. فإذا أحب المؤمن أخاه لله، وأبغض لله، كان ذلك من كمال إيمانه، وعظيم إخلاصه.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال:

«متى الساعة؟» قال: «**وماذا أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. فقال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**».

قال أنس رضي الله عنه:

«فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت.»[1]

وهذا الحديث من أعظم أحاديث الرجاء.

قال الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، برقم (٦١٦٩)، وهذا لفظه.وأخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، برقم (٢٦٣٩)، بلفظ مقارب.

«وفي الحديث فضل حب الله ورسوله، والصالحين، وأهل الخير، وأن المرء يحشر مع من أحب إذا صدقت محبته.» (١)

ووجه الاستدلال أن النبي ﷺ جعل المحبة الصادقة سببًا للحشر مع أهلها، إذا اقترنت بالإيمان والاتباع، وفي ذلك أعظم ترغيب في محبة الله ورسوله وعباده المؤمنين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» وذكر منهم: **«ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه.»أخرجه البخاري، فى صحيحه كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، برقم (٦٦٠)، وهذا لفظه.وأخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١)، بلفظ مقارب.**

قال الإمام النووي رحمه الله:

«معنى تحابا في الله: كانت سبب محبتهما طاعة الله، لا لغرض من أغراض الدنيا.» (٢)

(١) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، ٥٥٥/١٠.

(٢) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، ١٢١/٧.

ويظهر من هذين الحديثين أن المحبة في الله ليست خلقًا فاضلًا فحسب، بل هي عبادة قلبية عظيمة، تبلغ بصاحبها أن يكون مع من أحب يوم القيامة، وأن ينال ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، وذلك جزاء من خلصت محبته لله، فلم تشبها مصلحة، ولم يفسدها هوى.

المطلب الرابع

الدعاء بالمحبة وآثارها في حياة المؤمن

لم تكتف السنة النبوية ببيان منزلة المحبة وفضلها، بل أرشدت المؤمن إلى أن يسأل الله تعالى أن يرزقه محبته، ومحبة أوليائه، والأعمال التي تقربه إليه؛ لأن القلوب بيده سبحانه، يقلبها كيف يشاء، فلا ينال العبد هذه المنزلة إلا بتوفيقه وفضله.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي، وأهلي، ومن الماء البارد.»

ثم قال رسول الله ﷺ:

«وكان إذا ذكر داود حدث عنه قال: كان أعبد البشر.»[1]

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، برقم (٣٤٩٠)، وهذا لفظه.وأخرجه أحمد في المسند (ط. مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرناؤوط)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، باختلاف يسير في اللفظ.

دراسة الإسناد

إسناده يدور على محمد بن سعد الأنصاري، عن عبد الله بن ربيعة الدمشقي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

وقد قال الإمام أبو عيسى الترمذي عقب إخراجه:

«هذا حديث حسن غريب.»

ورجال الإسناد ثقات، غير أن محمد بن سعد الأنصاري ليس من المشاهير، ولذلك وصفه الترمذي بالغرابة، إلا أن الحديث حسن، وقد حسنه جماعة من أهل العلم، منهم العلامة محمد ناصر الدين الألباني، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند.

وله شواهد صحيحة في المعنى، منها حديث الولاية: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...»، وحديث: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان...»، مما يقوي معناه ويشهد لمضمونه.

ويستفاد من هذا الحديث أن المؤمن لا يعتمد على عمله، بل يفتقر إلى ربه، ويسأله أن يرزقه أعظم نعمة، وهي محبته سبحانه، ومحبة من يحبه، والأعمال الموصلة إلى رضوانه.

ومن أعظم آثار هذه المحبة أن يجد المؤمن راحته وأنسه في عبادة ربه، كما كان حال سيد الخلق ﷺ.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة.»[1]

الحكم على الحديث

إسناده حسن، وصححه أو حسنه جماعة من أهل العلم، منهم الحاكم، والذهبي، والألباني.

قال ابن القيم رحمه الله:

«وكانت الصلاة قرة عينه؛ لأنها متضمنة لمناجاة ربه، والوقوف بين يديه، وذلك غاية نعيم المحبين.»[2]

فإذا تمكنت محبة الله من القلب، لم تعد العبادة تكليفًا يثقل على صاحبها، بل أصبحت راحةً وسعادةً، كما قال النبي ﷺ:

«وجعلت قرة عيني في الصلاة.»

وهذا هو أعظم أثر للمحبة الصادقة؛ إذ تتحول الطاعات من أعمال تؤدى، إلى لذات يجد المؤمن فيها سكينة قلبه، وأنس روحه، وقرة عينه.

---

(١) أخرجه النسائي،فى سننه كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، برقم (٣٩٣٩)، وهذا لفظه.
وأخرجه أحمد في المسند (١٢٨/٣، ط. مؤسسة الرسالة، رقم ١٢٢٩٣)، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ٣٠٥/٣.

خاتمة المبحث

ومن مجموع هذه النصوص يتبين أن السنة النبوية قد جعلت المحبة أصلًا من أصول الإيمان، وربطت بين كمالها وكمال العبودية، وحثت المؤمن على سؤال الله تعالى أن يرزقه محبته، وبينت أن من أعظم ثمارها الأنس بالطاعة، ولذة المناجاة، والفوز بمحبة الله تعالى، وهي المنزلة التي لا يوازيها شيء في الدنيا ولا في الآخرة.

الفصل الثالث

المبحث الاول : من أحبهم الله بوصفهم وصفاتهم

والصفات التي نص القرآن على أن الله يحب أهلها.

(١) المحسنون أهل محبة الله تعالى

قال الله تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

هذه أول آية في ترتيب المصحف صرحت بمحبة الله تعالى لصنف من عباده، وهم المحسنون؛ فكانت منزلة الإحسان أول المنازل التي قرنها الله بمحبته في كتابه، وفي ذلك تنبيه إلى علو شأنها وسعة آثارها؛ إذ الإحسان يجمع كمال عبادة الله تعالى، وحسن معاملة خلقه، وإتقان ما يقوم به العبد من أقوال وأعمال.

والإحسان منزلة زائدة على مجرد أداء العمل؛ فقد يؤدي الإنسان الواجب، ولكنه يؤديه في غفلة أو فتور، أما المحسن فإنه يجمع بين صحة العمل وحضور القلب، وبين موافقة الشرع وإخلاص القصد، وبين القيام بحق الله والرحمة بعباده.

فليس الإحسان عملًا واحدًا محدودًا، وإنما هو وصف جامع يدخل في عبادة العبد، وأخلاقه، ومعاملاته، وبذله، وعفوه، وصبره، ودعوته، ونصرته للحق؛ ولذلك تكرر اقترانه بمحبة الله تعالى في سياقات متعددة من القرآن الكريم، ليبين أن طريق الإحسان واسع، وأن أبواب نيل محبة الله ليست محصورة في صورة واحدة.

أولًا: حقيقة الإحسان

جاء البيان النبوي الجامع لمعنى الإحسان في حديث جبريل عليه السلام، حين سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال:

«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».[1]

فجعل النبي ﷺ حقيقة الإحسان قائمة على استحضار مراقبة الله تعالى؛ إذ يعبد العبد ربه عبادة من استحضر قربه واطلاعه، وعلم أن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سره ونجواه، ولا تخفى عليه حركة قلبه ولا قصد عمله.

والمحسن في عبادته لا يكتفي بصورة العمل الظاهرة، بل يعتني بروحه وباطنه؛ فإذا قام إلى الصلاة استشعر أنه واقف بين يدي الله، وإذا قرأ القرآن

(١) اخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل. فى صحيحه . ط. ١. بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"، رقم (٥٠). ومسلم بن الحجاج فى صحيحه . ط. ١. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩). واخرجه غيرهم

استشعر أنه يسمع كلام ربه، وإذا دعا علم أن الله يسمعه، وإذا خلا بنفسه استحيا أن يراه الله على معصية.

ومقام الإحسان الوارد في الحديث يقوم على درجتين عظيمتين:

الدرجة الأولى: أن يعبد العبد الله كأنه يراه، وهي مقام المشاهدة القلبية؛ فيمتلئ قلبه بتعظيم الله ومحبته والشوق إليه، حتى يقبل على العبادة بقلب حاضر، كأنه يشاهد بقلبه آثار أسماء الله وصفاته.

والدرجة الثانية: أن يستحضر أن الله يراه، وهي مقام المراقبة؛ فإذا ضعف عن الدرجة الأولى، لم يغب عنه علمه بأن الله مطلع عليه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فمن استحضر نظر الله إليه أحسن عمله، وطهر نيته، وحفظ جوارحه، واستحيا أن يقدم إلى ربه عملًا ناقصًا أو مشوبًا بالرياء.

وليس المراد أن يصل العبد إلى العصمة من الخطأ أو الغفلة، وإنما المقصود أن يجاهد نفسه على استحضار مراقبة الله، فإذا غفل تذكر، وإذا زل تاب، وإذا قصر استدرك، حتى يصبح قلبه أسرع رجوعًا إلى ربه.

ثانيًا: الإحسان في عبادة الله تعالى

أول أبواب الإحسان أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله؛ فيؤدي الفرائض كاملة الشروط والأركان، ويجتنب المحرمات، ويتقرب إلى ربه بالنوافل، ويخلص له القصد، ويجاهد نفسه على حضور القلب.

فإحسان الصلاة ليس بكثرة الحركات، وإنما بإقامتها كما شرع الله، مع الخشوع والطمأنينة وتعظيم من يقف العبد بين يديه.

وإحسان الصيام ليس بمجرد ترك الطعام والشراب، وإنما بحفظ اللسان والعين والقلب عما لا يرضي الله.

وإحسان الصدقة ليس بمجرد إخراج المال، وإنما بإخلاص النية، واختيار الطيب، والبعد عن المن والأذى، وحفظ كرامة المحتاج.

وإحسان التوبة ليس بمجرد قول: أستغفر الله، وإنما بالندم الصادق، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة، ورد الحقوق إلى أصحابها.

وإحسان الدعاء ليس بكثرة الألفاظ وحدها، وإنما بحضور القلب، وصدق الافتقار، وحسن الظن بالله، وعدم استعجال الإجابة.

فالمحسن لا ينظر فقط إلى مقدار العمل الذي يؤديه، بل ينظر إلى قلبه فيه: هل قصد به وجه الله؟ وهل وافق سنة رسوله ﷺ؟ وهل أداه على الوجه الذي يستطيع أن يلقى الله به؟

وقد يعمل رجلان العمل نفسه في الظاهر، وبينهما عند الله من التفاوت ما لا يعلمه إلا هو؛ لاختلاف الإخلاص وحضور القلب والصدق والتعظيم.

ثالثًا: الإحسان ببذل المال:

ورد الأمر بالإحسان في سورة البقرة بعد الأمر بالإنفاق، فقال تعالى:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فمن صور الإحسان أن يبذل الإنسان ماله في مواضع الخير، وألا يمنعه الخوف من الفقر من أداء حق الله، أو نصرة دينه، أو إغاثة المحتاجين.

وقد نقل الإمام الطبري رحمه الله في تفسير الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد: الإنفاق مما يملك الإنسان، قليلًا كان أو كثيرًا، ونقل عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾: أن يعينوا من ليس في يده شيء.[2]الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ولا يتوقف الإحسان في المال على كثرة ما يبذله الإنسان؛ فقد تكون صدقة قليلة عند الله أعظم من مال كثير، إذا خرجت من قلب صادق، أو كانت على قدر حاجة صاحبها، أو وقعت في موضعها المناسب.

وقد يكون الغني محسنًا بكثرة بذله، ويكون الفقير محسنًا بالقليل الذي يقدر عليه، ويكون من لا يملك مالًا محسنًا بكلمة طيبة أو شفاعة حسنة أو إعانة بيده.

ولا ينبغي للعبد أن يحتقر معروفًا يستطيع تقديمه؛ فإن أبواب الإحسان واسعة، وقد يجعل الله نجاته في عمل رآه صغيرًا، لكنه صدر عن قلب مخلص رحيم.

أما الإمساك عن الإنفاق الواجب، وترك مصالح الدين والمحتاجين تضيع مع القدرة على إعانتهم، فهو من أسباب هلاك الأفراد والمجتمعات؛ ولذلك جاء النهي عن إلقاء النفس إلى التهلكة في سياق الأمر بالإنفاق.

فالمال الذي يحفظه الإنسان من كل خير لا يحفظه بالضرورة من البلاء، والمال الذي يبذله لله لا يضيع، بل يبقى له مدخرًا عند ربه.

رابعًا: الإحسان في السراء والضراء

قال الله تعالى في وصف المتقين:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

بينت هذه الآية أن الإحسان ليس خلقًا موسميًّا يظهر في ساعات الرخاء ثم يختفي عند الشدة؛ فالمحسنون ينفقون في السراء والضراء، في الغنى والفقر، وفي السعة والضيق، كل بحسب قدرته.

أما من لا يحسن إلا حين تفيض يده بما لا يحتاج إليه، فإذا نزلت به أدنى شدة أغلق أبواب الخير، فإن إحسانه لم يرسخ بعد في قلبه.

والمقصود ليس أن يضيع الإنسان نفسه أو من تلزمه نفقتهم، وإنما أن يبقى باب الخير مفتوحًا في حياته، ولو بالقليل، وألا يجعل ضيق الحال عذرًا لانقطاعه عن كل معروف.

فالإحسان لا يقاس بحجم العطاء وحده، وإنما يقاس كذلك بحال المعطي، ومقدار ما بذله مما يملك، وصدق قصده فيما قدم.

وقد يقدم الفقير درهمًا فيسبق به آلاف الدراهم؛ لأنه بذله وهو محتاج إليه، وقد يقدم الغني مالًا كثيرًا لكنه لا يمثل من ماله إلا شيئًا يسيرًا.

ويدخل في الإنفاق في السراء والضراء بذل الوقت والعلم والجهد والجاه؛ فقد يضيق مال الإنسان، ولكن يبقى قادرًا على تعليم جاهل، أو مواساة حزين، أو زيارة مريض، أو إصلاح بين متخاصمين، أو الدعاء لمسلم بظهر الغيب.

خامسًا: كظم الغيظ من أعمال المحسنين

قال تعالى:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

الغيظ هو اشتداد الغضب في القلب، وكظمه هو حبسه ومنع آثاره من أن تخرج في صورة ظلم أو سب أو اعتداء.

وليس كظم الغيظ معناه أن الإنسان لا يغضب؛ فالغضب انفعال بشري قد يقع بغير اختياره، وإنما الإحسان أن يملك نفسه عند الغضب، فلا يظلم، ولا يتعدى، ولا يقول ما يندم عليه.

وحقيقة الإنسان تظهر حين يغضب؛ فقد يكون هادئًا لطيفًا ما دامت الأمور تجري على ما يريد، فإذا خالفه أحد أو مس كرامته ظهر ما في قلبه من كبر أو ظلم.

أما المحسن فيستحضر نظر الله إليه في لحظة الغضب، ويعلم أن قدرته على الانتقام امتحان، وأن القوة الحقيقية ليست في إطلاق الغضب، وإنما في التحكم فيه.

وكظم الغيظ لا يعني ترك إنكار المنكر، ولا تضييع الحقوق، ولا الرضا بالظلم، وإنما يعني ألا تتحول المطالبة بالحق إلى انتقام للنفس وتجاوز لحدود الله.

فقد يطالب الإنسان بحقه بهدوء وعدل، وقد يرد الظلم بالطريق المشروع، ولكنه لا يسمح لغضبه أن يحمله على الكذب أو البهتان أو القطيعة المحرمة أو إيذاء الأبرياء.

سادسًا: العفو عن الناس

لم تقف الآية عند كظم الغيظ، بل ارتقت بالمؤمن إلى منزلة أعلى، فقال تعالى:

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

فكظم الغيظ هو حبس أثر الغضب، أما العفو فهو إسقاط المؤاخذة وترك الانتقام مع القدرة عليه.

وقد بيَّن ابن كثير رحمه الله أن العافين عن الناس لا يكتفون بكف الشر عمن ظلمهم، بل يعفون عنه، فلا تبقى في نفوسهم موجدة تطالب بالانتقام، ثم قال في بيان منزلة ذلك: إن هذا من مقامات الإحسان."[1]

(١) [3]ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

والعفو من أشق الأخلاق على النفس؛ لأن النفس تحب الانتصار لذاتها، وتجد لذة في رؤية من أساء إليها متألمًا أو معتذرًا.

أما المحسن فيعامل الناس بما يحب أن يعامله الله به؛ فيذكر ذنوبه وحاجته إلى عفو ربه، فيلين قلبه للعفو عن عباده.

وهو لا يعفو ضعفًا ولا عجزًا، وإنما يعفو طلبًا لما عند الله، ويترك حقه وهو قادر على أخذه، رجاء أن يترك الله مؤاخذته بذنوبه.

ومع ذلك، فالعفو المحمود هو الذي يحقق الإصلاح، أما إذا كان العفو يؤدي إلى زيادة الظالم في ظلمه، أو إلى ضياع حقوق الآخرين، فقد يكون أخذ الحق بالعدل أولى؛ ولذلك قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

فقيد العفو بالإصلاح؛ لأن المقصود إقامة الخير، لا تمكين الظالم من الاستمرار في أذاه.

سابعًا: الإحسان أرفع من العفو

في قوله تعالى:

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

انتقال من دفع الشر إلى فعل الخير؛ فالمحسن لا يكتفي بأن يعفو عمن أساء إليه، بل قد يقابل الإساءة بالإحسان، والقطيعة بالصلة، والحرمان بالعطاء.

وهذه منزلة عالية لا تقدر عليها النفوس إلا إذا عظمت رغبتها فيما عند الله، وتحررت من أسر الانتصار للنفس.

فقد يعفو الإنسان عن المسيء، لكنه يبقى معرضًا عنه، أما الإحسان فقد يدفعه إلى صلته وإعانته والدعاء له بالهداية، متى كان ذلك أصلح وأقرب إلى رضا الله.

وليس الإحسان إلى المسيء إقرارًا لإساءته، وإنما هو انتصار على النفس والشيطان، وإظهار لجمال الأخلاق التي يحبها الله.

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي إن هذا الذي وصف من الإنفاق وكظم الغيظ والعفو هو الإحسان، والله يحب من عمل به.[4]الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، عند تفسير سورة آل عمران، الآية (١٣٤)،

وقد فسر الإحسان هنا بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وبيَّن أن الله يحب من عمل بذلك.

فليست محبة الله للمحسنين دعوى مجردة، وإنما لها أعمال ظاهرة: عطاء عند الحاجة، وضبط للنفس عند الغضب، وعفو عند القدرة، ورحمة في معاملة الخلق.

ثامنًا: الإحسان عند الشدائد

قال الله تعالى في وصف المؤمنين الذين ثبتوا مع أنبيائهم:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

جمعت هذه الآيات بين الصبر والإحسان؛ فبدأت بمحبة الله للصابرين، وختمت بمحبته للمحسنين.

وهؤلاء لم يظهر إحسانهم في ساعات الراحة وحدها، وإنما ظهر في أشد مواطن الخوف والألم؛ فلم يضعفوا، ولم يستكينوا، ولم يحملهم البلاء على

الاعتراض أو اليأس، بل رجعوا إلى أنفسهم بالاستغفار، ورجعوا إلى ربهم بطلب الثبات والنصر.

فالمحسن عند الشدة لا يرى نفسه كاملًا، ولا ينسب الخطأ كله إلى الآخرين، وإنما يراجع ذنوبه وتقصيره، ويسأل الله المغفرة، ثم يأخذ بأسباب الثبات والعمل.

وقد جمع الله لهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ثم ختم الآيات بقوله:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فدل ذلك على أن الإحسان لا يعني اللين في كل موضع، بل يدخل فيه الثبات على الحق، والصبر في مواجهة الباطل، وبذل النفس والمال في نصرة دين الله على الوجه الذي شرعه.

تاسعًا: الإحسان مع من أساء

قال الله تعالى في شأن طائفة نقضت عهودها:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

تبين الآية أن الإحسان لا يقتصر على من أحسن إلينا، وإنما يبلغ كماله حين نحسن مع من صدرت منه الإساءة، إذا كان العفو والصفح هو الأنسب لتحقيق المصلحة ودفع المفسدة.

وقد جمع الله هنا بين العفو والصفح؛ فالعفو ترك المؤاخذة، والصفح تجاوز أثر الذنب وعدم الاسترسال في التعيير به.

وهذا لا يعني الغفلة عن الخيانة، ولا ترك الاحتياط، ولا تعطيل العدل؛ فالقرآن نفسه أخبر عن خيانتهم وحذر منها، لكنه أمر بالعفو والصفح في الموضع الذي تقتضيه الحكمة.

فالمحسن ليس ساذجًا يخدع كل مرة، وليس قاسيًا ينتقم لكل إساءة، وإنما يزن المواقف بميزان الشرع، فيعفو حيث يكون العفو إصلاحًا، ويأخذ بالعدل حيث يكون ذلك أحفظ للحقوق وأردع للظلم.

عاشرًا: الإحسان إلى الخلق ثمرة الإحسان مع الخالق

لا يستطيع الإنسان أن يداوم على الإحسان إلى الخلق اعتمادًا على أخلاقهم؛ لأن الناس يتغيرون، وقد يقابلون الإحسان بالجحود، والمعروف بالنكران، واللين بالإساءة.

ولكن المحسن لا يعاملهم من أجلهم وحدهم، وإنما يعاملهم لله، ويرجو ثوابه، ويطلب محبته.

فإذا شكر الناس إحسانه حمد الله، وإذا جحدوه لم يندم على ما قدم؛ لأنه لم يضع معروفه عندهم، وإنما قدمه بين يدي ربه.

ومن كان ينتظر من الناس جزاء كل إحسان، توقف إحسانه حين لا يجد منهم ما يريد.

أما من ينتظر الجزاء من الله، فإنه يستمر في الخير، ولو نسيه الناس، أو نسبوه إلى غيره، أو قابلوه بما يكره.

قال الله تعالى في وصف عباده الأبرار:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

فالإخلاص يحرر الإحسان من ردود أفعال الخلق، ويجعل صاحبه ثابتًا على الخير، لا تمنعه إساءة الناس من طاعة الله فيهم.

آثار محبة الله للمحسنين

إذا أحب الله العبد المحسن، وفقه إلى مزيد من الإحسان، وشرح صدره للطاعة، وأعانه على مجاهدة نفسه، وجعل له من القبول والطمأنينة بقدر صدقه.

والمحسن يعيش في معية الله الخاصة، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وهذه المعية معية نصرة وتأييد وحفظ وتوفيق؛ فمن كان الله معه لم يضره فقد معين من الخلق، ومن خذله الله لم تنفعه كثرة الأنصار.

وقد وعد الله المحسنين بحسن الجزاء فقال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فاجتمعت للمحسنين محبة الله، ومعيته، وقرب رحمته، وحسن الجزاء؛ فأي منزلة أعظم من هذه المنزلة، وأي تجارة أربح من إحسان يقدمه العبد في حياته القصيرة، فينال به محبة ربه ورحمته وثوابه؟

(٢ــ٣) التوابون والمتطهرون أهل محبة الله تعالى

قال الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

جمعت هذه الآية الكريمة بين صنفين من عباد الله نالا محبته سبحانه: التوابين والمتطهرين؛ فجمعت بين تطهير الباطن من أدران الذنوب، وتطهير الظاهر من الأحداث والنجاسات، لتدل على أن المحبة الإلهية تنال بقلب يرجع إلى الله، وبدن يتنزه عما أمر الله بالتنزه عنه.

فالتوبة طهارة القلب، والطهارة الحسية نظافة البدن والثوب والمكان، والمؤمن مأمور بأن يلقى ربه بقلب طاهر وجسد طاهر، وألا يعتني بصورة العبادة الظاهرة مع إهمال باطنه، ولا يدعي صفاء قلبه وهو متهاون بما شرعه الله من الطهارة والنظافة.

وقد رجح الإمام الطبري رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية أن المراد بالتوابين: التائبون من الذنوب، وبالمتطهرين: المتطهرون بالماء للصلاة؛ لأن هذا المعنى هو الأظهر من سياق الآية، مع دخول المعاني الصحيحة الأخرى في عموم اللفظ. ونقل البغوي أقوالًا متقاربة، منها أن التواب هو الذي كلما أذنب رجع

إلى الله، وأن المتطهرين هم المتنزهون من الأحداث والنجاسات والذنوب[1] وفي اقتران التوبة بالطهارة لطيفة إيمانية بديعة؛ فإن الذنب يترك أثرًا في القلب، كما تترك النجاسة أثرًا في البدن والثوب، وكما يبادر المؤمن إلى إزالة النجاسة عن ظاهره، ينبغي له أن يبادر إلى إزالة أثر المعصية عن قلبه بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح.

أولًا: معنى التوابين

لم يقل الله تعالى: «إن الله يحب التائبين» فحسب، وإنما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

وصيغة «التوابين» تدل على كثرة الرجوع إلى الله وتجدد التوبة؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقصير أو غفلة أو ذنب، والمؤمن ليس هو الذي لا يقع منه خطأ أبدًا، وإنما هو الذي لا يرضى أن يقيم بعيدًا عن ربه، فكلما زلت قدمه أسرع إلى الرجوع، وكلما غلبته نفسه استعان بالله عليها، وكلما حجبت المعصية قلبه أزال حجابها بالندم والاستغفار.

---

(١) .[1](ينظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، عند تفسير سورة البقرة، الآية (٢٢٢)؛ والبغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، عند تفسير الآية نفسها.)

فالتواب ليس معصومًا من الذنب، ولكنه محفوظ من الإصرار والاطمئنان إليه.

قد يضعف، لكنه لا يتخذ ضعفه منهجًا.

وقد يذنب، لكنه لا يدافع عن ذنبه ولا يزعم أن المعصية طاعة.

وقد يعود إلى الذنب بعد توبة صادقة لضعف نفسه، لكنه لا يقول: لا فائدة من التوبة، بل يجددها مرة بعد مرة، ويظل واقفًا على باب ربه.

وهذا يفتح للمؤمن بابًا عظيمًا من الرجاء؛ لأن الله لم يجعل محبته مقصورة على من لم يذنب قط، بل جعل من أحب عباده أولئك الذين يعرفون طريق العودة إليه، ويكثرون من طرق باب رحمته.

وكلما تكررت منك الزلة، فلا تجعل تكرارها حجة لترك التوبة؛ لأن الشيطان يريد منك معصيتين: أن تقع في الذنب، ثم أن تيأس من رحمة الله بسببه.

فإذا أوقعك في الأولى فلا تمكنه من الثانية، بل ارجع إلى الله، واستغفره، وابك على خطيئتك، وخذ بأسباب النجاة منها.

ثانيًا: التوبة رجوع إلى الله لا مجرد ترك للذنب

التوبة في حقيقتها ليست مجرد توقف مؤقت عن المعصية؛ فقد يترك الإنسان الذنب خوفًا من الناس، أو عجزًا عن الوصول إليه، أو حفاظًا على سمعته، أو لأن رغبته فيه قد ضعفت، وليس كل ترك للذنب توبة إلى الله.

إنما التوبة رجوع القلب إلى ربه، وشعوره بقبح المخالفة، وندمه على ما صدر منه، واعترافه بتقصيره، وعزمه على أن يسلك طريق الطاعة.

فقد يترك الإنسان المعصية بجوارحه، لكن قلبه لا يزال متعلقًا بها، يتحسر على فواتها، ويتمنى القدرة على العودة إليها؛ فهذا لم يحقق حقيقة التوبة الكاملة.

أما التائب فإنه يترك الذنب تعظيمًا لله، وحياءً منه، وخوفًا من عقابه، ورغبةً في قربه ورضاه.

والتوبة تشتمل على معانٍ عظيمة:

أولها: العلم بأن ما فعله العبد مخالفة لأمر الله.

وثانيها: الندم على ما مضى، وهو ألم القلب بسبب البعد عن الله.

وثالثها: الإقلاع عن الذنب في الحال.

ورابعها: العزم الصادق على ألا يعود إليه.

فإن كان الذنب متعلقًا بحقوق العباد، انضاف إلى ذلك رد الحقوق إلى أصحابها، أو طلب مسامحتهم بالطريقة التي تحقق العدل ولا تفضي إلى مفسدة أعظم.

ولا يشترط لصحة العزم أن يعلم الإنسان من نفسه أنه لن يضعف في المستقبل أبدًا؛ فهذا أمر لا يملكه، وإنما المطلوب أن يكون صادقًا في ساعة التوبة، غير عازم على الرجوع إلى الذنب.

فإن غلبته نفسه بعد ذلك ووقع مرة أخرى، لم تبطل توبته الأولى إذا كانت صادقة، ولكنه يحتاج إلى توبة جديدة من الذنب الجديد.

ثالثًا: محبة الله للتوابين تكريم بعد الانكسار

إن من أعجب معاني هذه الآية أن العبد يعصي ربه، ثم يندم ويرجع إليه، فلا يقتصر فضل الله على قبول توبته ومحو خطيئته، بل يرفعه إلى منزلة المحبوبين:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

فالذنب الذي أراد الشيطان أن يجعله باب هلاك، قد يجعله الله بالتوبة الصادقة باب انكسار ومعرفة وافتقار، فيخرج العبد من المعصية وهو أشد حبًّا لربه، وأكثر خوفًا من نفسه، وأرحم بالمذنبين، وأبعد عن العجب بطاعته.

وقد يكون في الطائعين من يرى لنفسه منزلة بسبب عمله، ويحتقر أهل الذنوب، وقد يكون في المذنب التائب من انكسر قلبه انكسارًا أورثه صدقًا وذلًّا وافتقارًا، فكان انكساره أحب إلى الله من عجب ذلك بعمله.

وليس معنى ذلك التهوين من شأن المعصية، أو الدعوة إلى الوقوع فيها طلبًا للتوبة؛ فإن الذنب سم وجرح، وقد لا يوفق صاحبه إلى الرجوع، ولكن المقصود ألا يقنط من وقع في الذنب، وألا يظن أن الطريق إلى الله قد أغلق دونه.

فالله يحب التوابين؛ أي يحب رجوعهم إليه، وندمهم بين يديه، واعترافهم بضعفهم، وصدق افتقارهم إلى عفوه.

رابعًا: فرح الله تعالى بتوبة عبده

قال رسول الله ﷺ:

«لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَ أَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»..."[1]

يضرب النبي ﷺ في هذا الحديث مثلًا يقرب إلى القلوب عظمة فرح الله بتوبة عبده.

---

(١) والحديث ثابت في صحيح مسلم في كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها، برقم (٢٧٤٧ حديث «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ...» حديثٌ صحيح متفق عليه؛ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٦٣٠٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ». وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٧٤٧)، من حديث أنس رضي الله عنه بألفاظ وطرق متعددة، وفي بعضها القصة مطولة: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ...»، ثم ذكر قصة الرجل الذي أضل راحلته بأرض فلاة، وعليها طعامه وشرابه، ثم وجدها بعد اليأس منها، فقال من شدة الفرح: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»، قال ﷺ: «أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».ولـه أصل صحيح أيضًا من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، الباب نفسه، رقم (٢٧٤٤)، وفيه ضرب النبي ﷺ المثل برجلٍ كان في أرضٍ دَوِّيَّةٍ مهلكة، معه راحلته وعليها طعامه وشرابه، فضلت منه، ثم وجدها بعد أن أيقن بالهلاك؛ فقال ﷺ: «فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

رجل في صحراء مهلكة، قد ضاعت راحلته وعليها طعامه وشرابه، وانقطعت أسباب نجاته، وأيقن بالموت، ثم استيقظ فإذا راحلته واقفة عند رأسه، فعاد إليه الأمل والحياة في لحظة واحدة، واشتد فرحه حتى أخطأ في العبارة.

ومع شدة هذا الفرح، أخبر النبي ﷺ أن الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يرجع إليه.

إن ربك لا يمل رجوعك، ولا يطردك لأنك أخطأت، ولا يقول لك: قد جئت بعد فوات الأوان، ما دمت قد أتيته تائبًا صادقًا قبل إغلاق باب التوبة.

فكيف ييأس عبد من رب يفرح بتوبته؟

وكيف يستحيي من العودة إلى من دعاه إلى العودة؟

وكيف يهرب من باب يعلم أن ربه يحب الواقفين عليه نادمين؟

إن الشيطان يصور لك ذنبك جبلًا لا يمكن تجاوزه، أما الله فيفتح لك باب التوبة، ويخبرك أنه يحب التوابين ويفرح برجوعهم.

فلا تجعل عظمة ذنبك في نظرك أعظم من سعة رحمة الله، ولا تجعل معرفتك بضعفك سببًا للبعد عنه، بل اجعلها سببًا لمزيد من الافتقار إليه.

خامسًا: باب التوبة مفتوح ليلًا ونهارًا

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»."[1]

فالعبد إن أذنب في نهاره وجد باب التوبة مفتوحًا في ليله، وإن أذنب في ليله وجده مفتوحًا في نهاره؛ فلا تمر ساعة إلا ورحمة الله تدعوه إلى الرجوع. ولكن فتح الباب لا يعني جواز التسويف؛ فإن الإنسان لا يدري متى تنتهي حياته، ولا يضمن أن يبقى قلبه حيًّا راغبًا في التوبة.

ورب ذنب وقع مرة فندم صاحبه عليه، ثم سوّف التوبة حتى ألفه، فصار الذنب عادة، ثم صار الدفاع عنه جزءًا من حياته.

فالتوبة النافعة هي التوبة التي يبادر بها العبد حين يستيقظ قلبه، قبل أن يبرد الندم، وتقسو النفس، ويقوى سلطان المعصية.

إذا سمعت نداء التوبة في قلبك فلا تقل: غدًا.

وإذا شعرت بوحشة الذنب فلا تقتل هذا الشعور بكثرة الملهيات.

وإذا رق قلبك في موعظة أو صلاة أو جنازة، فلا تترك هذه اللحظة تمر من غير عهد جديد مع الله.

فقد تكون تلك الرقة رسالة رحمة، فتح الله بها لك باب النجاة.

---

(١) وقد أخرج مسلم هذا الحديث في كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، برقم (٢٧٥٩).

سادسًا: لا تعارض بين كثرة التوبة وصدقها

قد يقول الإنسان: لقد تبت من هذا الذنب مرات، ثم عدت إليه، فكيف أعود إلى التوبة من جديد؟

والجواب أن الله سمى أحباءه «التوابين»، وهي صيغة تدل على تكرر التوبة والرجوع؛ لأن معركة الإنسان مع نفسه وهواه قد تطول، والانتصار فيها قد يأتي بعد جولات متعددة.

والمطلوب ألا تكون التوبة لعبة باللسان، فيعزم الإنسان على العودة إلى الذنب وهو يقول: أستغفر الله؛ فهذا استغفار ناقص لا يحقق حقيقة التوبة.

أما من صدق في توبته، ثم غلبته نفسه بعد مدة، فليجدد التوبة، وليدرس أسباب سقوطه، وليغلق الأبواب التي دخلت عليه منها المعصية.

فإن كان سبب الذنب صحبة سيئة فارقها.

وإن كان سببه هاتفًا أو موقعًا أو مكانًا أغلق بابه.

وإن كان سببه فراغًا ملأ وقته بالطاعة والعمل النافع.

وإن كان سببه مالًا حرامًا تخلص منه.

وإن كان سببه تعلقًا بإنسان قطع أسباب الفتنة.

فالتوبة الصادقة ليست دمعة فقط، وإنما هي دمعة يتبعها تغيير.

وليست كلمة استغفار فحسب، وإنما هي قرار بإعادة ترتيب الحياة حتى لا تبقى المعصية قريبة سهلة التناول.

سابعًا: التوبة لا تكون من الكبائر وحدها

بعض الناس لا يفكر في التوبة إلا إذا وقع في ذنب عظيم ظاهر، مع أن العبد محتاج إلى التوبة من كل تقصير.

يحتاج إلى التوبة من تأخير الصلاة.

ومن الغيبة والنميمة.

ومن النظر المحرم.

ومن العقوق وسوء الخلق.

ومن الرياء والعجب.

ومن قسوة القلب.

ومن الغفلة الطويلة عن ذكر الله.

ومن كلمة آذت مسلمًا.

ومن حق أخذه ولم يؤده.

ومن علم تعلمه ولم يعمل به.

ومن نعمة استعملها في معصية المنعم.

بل قد يحتاج الإنسان إلى التوبة من طاعة أفسدها الرياء، أو من عمل صالح أعجب به، أو من حديث عن نفسه أراد به أن يرفع منزلته في قلوب الناس.

ولهذا كان الصالحون يكثرون من الاستغفار بعد العبادات؛ لأنهم يعرفون أن أعمالهم لا تليق بكمال عظمة الله، وأنها لا تخلو من نقص أو غفلة.

فنحن لا نتوب لأننا أشر الناس، وإنما نتوب لأننا عباد ضعفاء، ولأن ربنا عظيم يستحق عبادة أكمل مما نقدم.

ثامنًا: التوبة تطهير للقلب

الذنوب لا تمر على القلب من غير أثر؛ فكل معصية تضعف نور الإيمان، وتزيد تعلق النفس بالشهوة، وتثقل الطاعة، وتفتح بابًا لمعصية أخرى.

وقد لا يشعر الإنسان بأثر الذنب في ساعته، لكنه يراه بعد ذلك في قسوة قلبه، وثقل صلاته، وضعف تأثره بالقرآن، وسهولة وقوعه في المعصية، وضيق صدره عن النصيحة.

أما التوبة فتغسل القلب من تلك الآثار، وتعيد إليه حساسيته الإيمانية، فيعود يتألم من الذنب بعد أن كان يألفه، ويفرح بالطاعة بعد أن كانت ثقيلة عليه.

ولهذا اقترنت التوبة بالطهارة؛ لأن التوبة غسل معنوي للقلب.

فكما أن الماء يزيل ما علق بالجسد، تزيل دموع الندم والاستغفار والعمل الصالح ما علق بالقلب من ظلمة المخالفة.

وكلما سارع العبد إلى التوبة بعد الذنب، كان أثر المعصية أضعف وأسهل إزالة، أما إذا تركها حتى تستقر وتتحول إلى عادة، احتاج إلى مجاهدة أشد.

تاسعًا: معنى المتطهرين

قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

والمتطهرون هم الذين يطلبون الطهارة ويعتنون بها، فيتطهرون من الأحداث والنجاسات، ويلتزمون ما شرعه الله في نظافة الأبدان والثياب والأماكن.

وقد ذكر الطبري أن الأظهر في سياق آية البقرة أن المقصود التطهر بالماء للصلاة، وذكر القرطبي أقوال المفسرين في دخول التطهر من الجنابة والأحداث والنجاسات والذنوب في معنى الآية.

والطهارة في الإسلام ليست عادة اجتماعية فحسب، ولا مجرد ترف جسدي، وإنما هي عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله، وشرط لصحة أعظم العبادات العملية، وهي الصلاة.

فحين يتوضأ المؤمن لا يغسل أعضاءه لمجرد إزالة الغبار، وإنما يمتثل أمر ربه ويتهيأ للوقوف بين يديه.

وحين يغتسل من الجنابة لا يؤدي عادة صحية فحسب، وإنما يرفع حدثًا منعه من الصلاة والطواف ومس المصحف على تفصيل أحكام الفقهاء.

وحين يطهر ثوبه ومكان صلاته فإنه يستعد لمناجاة الله في هيئة يحبها سبحانه.

عاشرًا: الطهور شطر الإيمان

قال رسول الله ﷺ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ».

وهو أول حديث طويل رواه أبو مالك الأشعري رضي الله عنه، وفيه كذلك:

«وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»."[1]

وهذا يدل على عظيم منزلة الطهارة في الدين؛ لأنها مفتاح الصلاة، والصلاة أعظم صلة عملية بين العبد وربه.

والمؤمن الذي يعرف أن الله يحب المتطهرين لا يتعامل مع الوضوء على أنه حركات سريعة يريد التخلص منها، وإنما يؤديه بإحسان، من غير إسراف في الماء، ولا تهاون في غسل الأعضاء، ولا وسوسة تخرجه عن الاعتدال.

والطهارة المحبوبة شرعًا تقوم على الاتباع والاعتدال؛ فلا يكون الإنسان مهملًا متساهلًا، ولا موسوسًا يعيد الطهارة مرات بسبب أوهام لا دليل عليها.

فكلا الطرفين بعيد عن هدي الشريعة؛ الإهمال يضيع العبادة، والوسوسة تحول الطهارة إلى عذاب وقلق.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، برقم (٢٢٣).

الحادي عشر: محبة الطهارة سبب لمحبة الله

قال الله تعالى في مسجد أسس على التقوى:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

فلم يقل سبحانه: يتطهرون فحسب، وإنما أثنى عليهم بأنهم يحبون أن يتطهروا؛ فقد صارت الطهارة محبوبة إلى قلوبهم، لا عبئًا يؤدونه متثاقلين.

وقد ورد في تفسير الآية أن من خصال أهل قباء عنايتهم بالاستنجاء بالماء، فمدحهم الله بمحبتهم للطهارة، مع بقاء عموم الآية في كل من أحب التطهر والتزم به.

وهنا يظهر الفرق بين من يفعل العبادة لأنه مضطر إليها، ومن يفعلها لأنه يحب ما يحبه الله.

المؤمن الكامل لا يتوضأ فقط، بل يحب الوضوء.

ولا يصلي فقط، بل يحب الصلاة.

ولا يتوب فقط، بل يحب الرجوع إلى الله.

ولا يترك النجاسة فقط، بل يحب النظافة والطهارة.

فإذا أحب العبد ما يحبه الله، قادته هذه المحبة إلى العمل، وكان أرجى لأن يكون من المحبوبين عند الله.

الثاني عشر: الطهارة الظاهرة لا تغني عن طهارة الباطن

قد يبالغ الإنسان في نظافة بدنه وثوبه، لكنه يحمل في قلبه حسدًا أو كبرًا أو رياءً أو حقدًا، فتكون صورته نظيفة وباطنه ملوثًا.

وقد يهتم بقطرة أصابت ثوبه، ولا يهتم بكلمة غيبة أفسدت قلبه.

ويتحرز من نجاسة حسية يسيرة، لكنه لا يتحرز من مال حرام يدخل بيته.

ويغسل يديه مرات، لكنه لا يطهرهما من الظلم والاعتداء.

ويتمضمض بالماء، لكنه لا يطهر فمه من الكذب والسب والوقيعة في الأعراض.

وهذا خلل في فهم الطهارة؛ لأن الله الذي أمر بطهارة الجسد أمر كذلك بتزكية النفس، وتطهير القلب من الشرك والنفاق والحسد والكبر.

ولا يعني هذا التهوين من أحكام الطهارة الظاهرة، بل المقصود الجمع بين الطهارتين.

فطهارة الظاهر بلا طهارة الباطن صورة ناقصة.

وادعاء طهارة القلب مع مخالفة أحكام الشرع دعوى غير مقبولة.

والمؤمن الصادق يطهر ظاهره بالماء، ويطهر باطنه بالتوحيد والإخلاص والتوبة والذكر.

الثالث عشر: من صور الطهارة الباطنة

أعظم الطهارة الباطنة تطهير القلب من الشرك؛ فلا يتعلق العبد بغير الله تعلق العبادة، ولا يصرف الدعاء والخوف والرجاء والتوكل الذي هو عبادة إلا له سبحانه.

ومنها تطهير القلب من الرياء؛ فيعمل العبد لله، ولا يجعل نظر الناس ومدحهم غايته.

ومنها تطهيره من الكبر؛ فلا يرى نفسه خيرًا من عباد الله، ولا يرد الحق لأن قائله أقل منه مالًا أو علمًا أو مكانة.

ومنها تطهيره من الحسد؛ فلا يتمنى زوال نعم الله عن عباده، بل يسأل الله من فضله ويدعو لإخوانه بالبركة.

ومنها تطهيره من الحقد؛ فيعفو ويصفح حيث يكون العفو إصلاحًا.

ومنها تطهيره من سوء الظن بالله؛ فيثق بحكمته ورحمته، وإن خفيت عليه أسرار القدر.

ومنها تطهيره من التعلق المحرم بالدنيا؛ فيستعملها طريقًا إلى الله، ولا يجعلها أكبر همه.

وهذه الأدواء الباطنة أشد خطرًا من كثير من الأوساخ الظاهرة؛ لأن وسخ الجسد يزول بالماء، أما مرض القلب فقد يبقى مع الإنسان سنوات وهو يظن نفسه من الصالحين.

الرابع عشر: التوبة والطهارة تتجددان في حياة المؤمن

كما يتكرر الوضوء في يوم المسلم، تتكرر التوبة في حياته.

فهو يتوضأ كلما أحدث، ويتوب كلما أذنب.

ولا يقول: لقد توضأت بالأمس فلا أحتاج اليوم إلى طهارة، وكذلك لا يقول: لقد تبت قبل سنوات فلا أحتاج إلى تجديد التوبة.

فالإنسان تتجدد منه الغفلة والتقصير، ولذلك يحتاج إلى تجديد الطهارة الظاهرة والباطنة.

وما أجمل أن يقترن الوضوء بالتوبة؛ فإذا غسل المسلم وجهه تذكر ما نظرت إليه عيناه، وإذا غسل يديه تذكر ما باشرته يداه، وإذا مسح رأسه تذكر ما دار في فكره، وإذا غسل قدميه تذكر الطرق التي مشى إليها.

فيخرج من وضوئه وقد طهر جسده بالماء، وقلبه بالندم والاستغفار.

وبذلك يتحول الوضوء من عادة متكررة إلى محطة إيمانية تعيد ترتيب القلب مرات في اليوم.

الخامس عشر: لا تطهر نفسك باحتقار المذنبين:

من أخطر أمراض بعض المتدينين أن يظن الإنسان أن طهارته تعني احتقار من وقع في الذنب، فينظر إلى العصاة بعين الكبر، وينسى أن الثبات فضل من الله، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

والتائب الصادق أرحم بالمذنبين؛ لأنه عرف ضعف النفس، وذاق مرارة الذنب، وعرف جمال الرجوع إلى الله.

فهو لا يبرر المعصية، لكنه يفتح لصاحبها باب الأمل.

ولا يغير اسم الحرام، لكنه لا يغلق باب الرحمة.

ولا يمدح الذنب، لكنه يذكر المذنب بأن له ربًّا يحب التوابين.

أما من يعير الناس بذنوبهم، ويفرح بسقوطهم، ويرى لنفسه فضلًا ذاتيًّا عليهم، فهو محتاج إلى أن يتوب من كبره كما يحتاجون إلى التوبة من معاصيهم.

السادس عشر: آثار التوبة والطهارة في حياة العبد

إذا صدق العبد في توبته، شعر بخفة القلب بعد ثقله، وبالأمل بعد اليأس، وبالأنس بالله بعد وحشة المعصية.

وتمنحه التوبة بداية جديدة؛ فلا يبقى أسيرًا لماضيه، ولا يعرف نفسه من خلال أسوأ ما فعل، وإنما يعرفها من خلال الطريق الذي اختاره بعد الذنب.

ويصبح أكثر تواضعًا، فلا يعجب بطاعته.

وأكثر رحمة، فلا يشمت بعاصٍ.

وأكثر حذرًا، فلا يأمن على نفسه من الفتنة.

وأكثر حبًّا لله، لأنه عرف سعة عفوه وحلمه.

أما الطهارة فتربيه على النظام والانضباط، وتعظيم الصلاة، ونظافة البدن والثياب والمكان، ومراعاة حقوق الآخرين في الأماكن العامة والخاصة.

والمجتمع الذي يفهم الطهارة عبادة لا يلوث الطرقات، ولا يؤذي الناس بالقاذورات والروائح، ولا يهمل نظافة المساجد والبيوت، ولا يفصل بين التدين والسلوك الحضاري النظيف.

فمحبة الله للمتطهرين ينبغي أن تظهر في بيوت المسلمين ومساجدهم وأبدانهم وثيابهم وطرقاتهم، كما تظهر في قلوبهم وألسنتهم وأعمالهم.

(٤)التقوى

من أعظم الصفات التي جعلها الله سببًا لنيل محبته التقوى، وقد تكرر التصريح بذلك في كتاب الله عز وجل.

قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤، ٧].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: يحب من اتقاه، فامتثل أوامره، واجتنب نواهيه، ووفى بعهده."[١]

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

وقال الطبرى «إن الله يحب الذين يتقونه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.»[٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.»** [١]

---

(١) »(ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (٧٦).)

(٢) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة آل عمران، الآية (٧٦).)

والتقوى جماع الخير كله، وحقيقتها أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ولذلك كانت من أعظم أسباب محبة الله عز وجل.

٥) الصبر

جعل الله سبحانه الصبر من أجلِّ الأخلاق التي ينال بها العبد محبة ربه، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال سبحانه:

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: والله يحب الصابرين عند لقاء الأعداء، وفي مواطن الشدة، وعلى أداء الطاعات، وترك المحرمات.»[٢]

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم (٢٥٦٤).

(٢) انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٤٦).

«والله يحب الصابرين على ما ابتلاهم به في سبيله، والمحتسبين فيما نالهم فيه.»[١]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.»[٢]

---

(١) (انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، برقم (٢٣٩٦)،وقال: حديث حسن، وحسنه غير واحد من أهل العلم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ».

أخرجه الترمذي في السنن، أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٦)، من طريق قتيبة، قال: حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، به. وقال الترمذي عقب الحديث: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

وأخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١)، من طريق يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس رضي الله عنه بنحوه.

ومدار هذا الطريق على سعد بن سنان – ويقال: سنان بن سعد الكندي المصري –، وقد اختلف أئمة الجرح والتعديل فيه؛ فوثقه يحيى بن معين في رواية، وذكره ابن حبان في الثقات، وتكلم فيه الإمام أحمد والنسائي وابن عدي وغيرهم، ولذلك فإسناد الحديث ليس من قبيل الأسانيد المتفق على قوتها، بل فيه مقال من جهة سعد بن سنان، إلا أن الإمام الترمذي حسَّن الحديث، فقال: «حسن غريب».

وللحديث شواهد صحيحة قوية في أصل معناه؛ فمن ذلك حديث مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى

فالصبر من أجلِّ منازل الدين، وبه تنال الإمامة في الدين، وهو يشمل الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على أقدار الله المؤلمة، ولذلك استحق أهله محبة الله عز وجل.

حَسَبِ دِينِهِ...»، أخرجه الترمذي رقم (٢٣٩٨) وقال: «حديث حسن صحيح»؛ وأخرجه ابن ماجه رقم (٤٠٢٣)، وأحمد في المسند.

ويشهد لمعناه أيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، رقم (٥٦٤٥). وكذلك حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»، أخرجه البخاري رقم (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم رقم (٢٥٧٣).

وخلاصة الحكم: إسناد حديث أنس فيه مقال من جهة سعد بن سنان، فلا ينبغي أن يقال إن سنده في أعلى درجات الصحة، إلا أن الترمذي حسنه، وأصل معناه تشهد له أحاديث صحيحة ثابتة في الصحيحين وغيرهما في أن عظم البلاء يكون سببًا لعظم الأجر وتكفير الخطايا ورفعة الدرجات، وأن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ ولذلك فالحديث حسن بمجموع ما احتف به من تحسين الترمذي وشواهده الصحيحة في معناه، وهو صالح للاحتجاج في باب الصبر على البلاء والترغيب فيه.

(٦) التوكل

ومن الصفات التي يحب الله أهلها التوكل عليه وحده، قال سبحانه:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: إذا شاورتهم وعزمت على الأمر، فتوكل على الله فيه، فإن الله يحب المتوكلين عليه.»[١]

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

«إن الله يحب المفوضين إليه أمورهم، الواثقين بكفايته.»[٢]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا.»[٣]

---

(١) (انظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(٢) (الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٥٩).

(٣) (أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، برقم (٢٣٤٤)، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه برقم (٤١٦٤).

فالتوكل من أجلِّ العبادات القلبية، وهو صدق اعتماد القلب على الله مع فعل الأسباب المشروعة، ولذلك جعله الله سببًا لنيل محبته.

(٧) العدل

ومن الصفات التي يحبها الله تعالى العدل، قال سبحانه:

﴿فَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩، والممتحنة: ٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «أي: العادلين في حكمهم بين الناس.»[١]

وقال الإمام الطبري رحمه الله: «إن الله يحب المنصفين الذين يعدلون في أحكامهم وأقوالهم.»[٢]

حديث «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله...» حديث صحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صححه الترمذي، وله طرق عند أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم، وأما طريق ابن ماجه ففيها ابن لهيعة وفي حفظه مقال، وهي متابعة لا يتوقف عليها تصحيح الحديث. والحديث أصل عظيم في حقيقة التوكل المقترن بفعل الأسباب؛ فإن النبي ﷺ مثَّل بالطير، وهي لا تبقى في أوكارها انتظارًا للرزق، وإنما «تغدو» في طلبه جائعةً، ثم «تروح بطانًا»؛ أي ترجع ممتلئة البطون، فجمع الحديث بين اعتماد القلب على الله تعالى وسعي الجوارح في الأسباب المشروعة.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة المائدة، الآية (٤٢)).

(٢) (الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة المائدة، الآية (٤٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا.» (١)

فالعدل من أجلِّ أخلاق الإسلام، وهو سبب لمحبة الله، وبه تصلح أحوال الأفراد والمجتمعات، ولذلك مدح الله أهله، ووعدهم بأعلى المنازل يوم القيامة.

(٨)الجهاد في سبيل الله

ومن الصفات التي يحبها الله تعالى الجهاد في سبيله، ولا سيما إذا قام على الإخلاص، ووحدة الصف، والثبات.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وقال سبحانه:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، برقم (١٨٢٧).

حديث «إن المقسطين عند الله على منابر من نور» صحيح بلا ريب، أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وهو من أفراد مسلم على البخاري، ورُوي كذلك عند أحمد والنسائي وغيرهما؛ فهو أصل صحيح قائم بنفسه في فضل العدل، ولا يتوقف الاحتجاج به على شيء من الشواهد أو المتابعات.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: من صفوفهم في قتال عدوهم، كما تقدم البنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا.» [١]

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

«يحب الذين يقاتلون أعداءه مصطفين، لا يختلفون، ولا يتفرقون، ولا يتخاذلون.» [٢]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال:

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، [٣]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الصف، الآية (٤).

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الصف، الآية (٤).

(٣) برقم (٢٨١٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، برقم (١٩٠٤). الحديث صحيح متفق عليه، في أعلى درجات القبول؛ أخرجه البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٥١٧)، والترمذي (١٦٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي

فمحبة الله هنا لم تتعلق بمجرد القتال، وإنما تعلقت بالإخلاص، ووحدة الصف، وابتغاء إعلاء كلمة الله.

(٩) الإنصاف والبر مع غير المحاربين

ومن كمال عدل الإسلام أن الله سبحانه أثنى على البر والعدل مع من لم يحارب المسلمين، فقال تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفار الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم، أن تبروهم وتقسطوا إليهم.»[١]

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

«إن الله يحب العادلين الذين يعدلون فيمن ولوا أمره، وفيمن عاملوه.» الطبري،[١]

(٣١٣٦)، وابن ماجه (٢٧٨٣)، وأحمد في المسند، ومن أرقامه (١٩٥١٩) في طبعة الرسالة. وتعددت طرقه عن أبي موسى رضي الله عنه، فلا يحتاج في إثبات صحته إلى شاهد أو متابع، وهو أصل عظيم في باب الإخلاص والنية، وأن صورة العمل لا تكفي في ترتب فضيلته حتى يصح القصد ويكون العمل لله تعالى.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الممتحنة، الآية (٨).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.»(٢)

فالعدل والإحسان خلقان ثابتان في شريعة الإسلام، مع المسلم وغيره ممن لم يقاتل المسلمين، ولذلك استحق أهلهما محبة الله تعالى.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الممتحنة، الآية (٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة، برقم (٤٩٤١)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، برقم (١٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

حديث «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ...» حديث صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (٦٤٩٤)، والحميدي (٥٩١)، والحاكم في المستدرك (١٧٥/٤)، ومداره المشهور على أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وإسناده قوي محتج به، وهو أصل عظيم في الحث على الرحمة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ فمن رحم الخلق كان أهلًا لرحمة الرحمن سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث هو المشهور عند المحدِّثين بـ**«المُسَلْسَل بالأَوَّلِيَّة»**؛ إذ جرت عادة كثير من أهل الحديث والمُسنِدين أن يفتتحوا به إسماع الطالب وروايته، فيقول الشيخ عند روايته لتلميذه: «وهو أول حديث سمعته من شيخي»، ويقول شيخه مثل ذلك عمن فوقه، فيتسلسل الإسناد بالأولية؛ ولذلك اشتهر حديث «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ...» بأنه أول ما يُروى للطالب عند ابتداء الأخذ والسماع، تفاؤلًا بأن تكون أول صلته بسنة رسول الله ﷺ قائمةً على الرحمة.

وقد اعتنى أهل الأثبات والمشيخات والأجزاء الحديثية بروايته مسلسلًا بالأولية، حتى صار من أشهر المسلسلات عند المحدثين، وكانوا يقدمونه في أوائل مجالس السماع والإجازة والأسانيد. وأصل الحديث صحيح ثابت من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٦٤٩٤)، والحميدي (٥٩١) وغيرهم.

خاتمة المبحث

وباستقراء آيات القرآن الكريم يظهر أن الصفات التي نص الله تعالى على محبته لأهلها تدور حول أصول عظيمة، هي: الإحسان، والتقوى، والصبر، والتوكل، والتوبة، والطهارة، والعدل، والجهاد في سبيل الله، وكلها ترجع إلى كمال العبودية لله تعالى، وحسن معاملة الخلق، فمن حققها نال أشرف غاية يسعى إليها المؤمن، وهي محبة الله عز وجل، كما قال سبحانه:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

المبحث الثالث الصفات التي أثنى الله على أهلها،

ورتب عليها أعظم الثواب،

وهي من أسباب نيل محبته

إن القرآن الكريم لم يقتصر على ذكر صفات صرح فيها بمحبة الله لأهلها، بل امتلأ بصفات أخرى أثنى الله على أصحابها، ووعدهم برضوانه، وبشرهم بجنته، وأعلى منزلتهم في الدنيا والآخرة. وهذه الصفات وإن لم يرد في بعضها لفظ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾، إلا أن ما رتب عليها من الثواب، وما جاء في السنة من بيان فضلها، يدل دلالة ظاهرة على أنها من أعظم أسباب نيل محبة الله تعالى ورضوانه.

ولهذا كان من المناسب أن تُذكر عقب الصفات السابقة؛ ليكتمل للقارئ طريق السير إلى الله، فيجمع بين ما نص الله على محبته، وما أثنى على أهله ومدحهم ووعدهم بجزيل ثوابه.

(١) الصدق

يعد الصدق من أجلِّ خصال الإيمان، بل هو أساس الأعمال الصالحة، وعليه تقوم الأقوال والأفعال، وقد أكثر الله سبحانه من الثناء على الصادقين، ووعدهم بأعظم الجزاء.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال سبحانه:

﴿هَـذَا يَـوْمُ يَنْفَـعُ الصَّـادِقِينَ صِـدْقُهُمْ لَهُـمْ جَنَّـاتٌ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَـدًا رَضِـيَ اللَّهُ عَـنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَٰلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِـيمُ﴾ [المائـدة: ١١٩].

وقال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿هَـذَا يَـوْمُ يَنْفَـعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾:

«أي: هذا يوم يحصل فيه نفع الصدق لأهله، فإنهم لما صدقوا في الدنيا في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم، نفعهم ذلك يوم القيامة، فأدخلهم الله الجنة، وأحل عليهم رضوانه.»[١]

وقال الإمام الطبري رحمه الله:

«يعني تعالى ذكره: هذا يوم ينفع أهل الصدق صدقهم في الدنيا، في إيمانهم بالله، ووفائهم له بما عاهدوه عليه.»[١]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة المائدة، الآية (١١٩).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا.»أ[٢]

فالصدق ليس مجرد صدق اللسان، بل هو صدق الإيمان، وصدق النية، وصدق العزيمة، وصدق الوفاء مع الله تعالى، ولذلك قرنه الله بالتقوى، وأمر المؤمنين بملازمة أهله، وجعل رضوانه وجنته جزاءً لهم، ولا ريب أن من رضي الله عنه، وأكرمه بهذا الجزاء، فقد نال أعظم أسباب محبته سبحانه.

ومن أروع الشواهد على منزلة الصدق ما رواه شداد بن الهاد رضي الله عنه: أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به وهاجر معه، ثم قال: «ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة.» فقال له النبي ﷺ: «إن تصدُقِ الله يصدقك.» فلم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة المائدة، الآية (١١٩).

(٢) خرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، برقم (٦٠٩٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق، برقم (٢٦٠٧).

يلبثوا إلا قليلًا حتى استشهد، وقد أصابه السهم في الموضع الذي أشار إليه، فقال النبي ﷺ: «صدق الله فصدقه.» [1]

وفي هذه القصة أبلغ دليل على أن الصدق مع الله ليس مجرد صدق اللسان، وإنما هو صدق النية، والعهد، والعزيمة، فإذا صدق العبد مع ربه، صدقه الله في وعده، وأكرمه بما لم يكن يحتسب

(٢) الإخلاص

الإخلاص أساس قبول الأعمال، وبه تميز المؤمنون عن أهل الرياء والنفاق، قال تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال سبحانه:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: لا يشركون به شيئًا، بل يفردونه بالعبادة وحده." [1]

---

(١) خرجه النسائي في سننه، كتاب الجنائز، برقم (١٩٥٣)، والحاكم في المستدرك (٦٥٢٧)، وصححه، وصححه الألباني.

حديث «إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ... صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ» حديث صحيح من حديث شداد بن الهاد رضي الله عنه؛ أخرجه النسائي (١٩٥٣)، والحاكم في المستدرك (١٢٠/٢) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى من الطريق نفسه. وهو أصل عظيم في صدق النية والإخلاص لله تعالى، وأن العبد إذا صدق الله في قصده وعزمه ووفائه، عامله الله سبحانه بصدقه وبلَّغه منازل الصادقين.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى[٢]

فالإخلاص روح الأعمال، وبدونه لا يقبل العمل، وإن كثر.

(٣) الخشوع

الخشوع من أجلِّ أعمال القلوب، وهو سبب للفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«الخشوع: السكون، والطمأنينة، والتواضع، والخوف من الله.»[٣]

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: **قال رسول الله ﷺ:**

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء.»[٤]

ومن أعظم الإحسان الخشوع في الوقوف بين يدي الله.

---

(١) »ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة البينة، الآية (٥).

(٢) .» أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١)، ومسلم في صحيحه برقم (١٩٠٧).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة المؤمنون، الآيتين (١-٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (١٩٥٥).

(٤) الإنابة

الإنابة هي دوام الرجوع إلى الله، وهي من صفات أوليائه.

قال تعالى:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال سبحانه:

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

قل أمنت«المنيب هو الراجع إلى الله بالتوبة والطاعة.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.» [٢]

فالإنابة حياة القلب، وكلما رجع العبد إلى ربه ازداد قربًا منه.

(١) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة ق، الآية (٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٥٩).

(٥) الاستقامة

الاستقامة هي لزوم الصراط المستقيم ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: أخلصوا العمل لله، واستقاموا على طاعته.» (١)

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال:

«قل: آمنت بالله، ثم استقم.» (٢)

---

(١) بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة فصلت، الآية (٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٣٨). حديث «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» صحيح من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم (٣٨)، والترمذي (٢٤١٠) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٩٧٢)، وأحمد (١٥٤١٦)، والنسائي في الكبرى، وابن حبان والحاكم وغيرهم، وهو من أفراد مسلم على البخاري.

(٦) الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد من أخلاق الأنبياء والصالحين.

قال تعالى:

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: لا ينقضون عهدًا بينهم وبين الله، ولا بينهم وبين الناس.»[١]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا... وإذا عاهد غدر.»[٢]

وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ إذ جمع الدين في كلمتين عظيمتين: الإيمان والاستقامة؛ فالإيمان إصلاح الأصل والباطن، والاستقامة لزوم مقتضى ذلك الإيمان ظاهرًا وباطنًا، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة البقرة، الآية (١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤)، ومسلم برقم (٥٨).

(٧) الأمانة

الأمانة من أعظم أخلاق الإسلام، وبها تحفظ الحقوق، وتستقيم المعاملات، وقد أمر الله تعالى بأدائها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]. قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وهذه الآية عامة في جميع الأمانات الواجبة على الإنسان.»[١] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك.»[٢]

فالأمانة تشمل حقوق الله، وحقوق العباد، وهي من أوضح دلائل كمال الإيمان.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة النساء، الآية (٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٥٣٤)، والترمذي في سننه برقم (١٢٦٤)، وقال: حديث حسن.
«أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده؛ أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) وقال: «حسن غريب»، وأحمد (١٠٢٧٧)، والدارمي (٢٥٩٧)، والحاكم في المستدرك (٥٣/٢)، والبيهقي في السنن الكبرى. وفي بعض أسانيده مقال من جهة حفظ بعض رواته، كشريك بن عبد الله وقيس بن الربيع وأيوب بن سويد، إلا أن تعدد طرق الحديث، مع تحسين الترمذي وتصحيح الحاكم وتقوية جماعة من أهل الحديث له، يرفعه عن مرتبة الضعف.
ومعناه تشهد له أصول الشريعة المحكمة في وجوب أداء الأمانات؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]؛ فخيانة الغير لا تُسوّغ للمؤمن أن يتخلق بالخيانة، وإنما يؤدي ما عليه ويطلب حقه بالوجه المشروع.

(٨) الشكر

الشكر من أجلِّ العبادات، وهو اعتراف القلب بنعمة الله، وثناء اللسان عليه، واستعمال النعمة في طاعته.

قال تعالى:

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«أي: وسيثيب الله من شكره على نعمه، بطاعته وإخلاص عبادته.»: **الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٤٤).**

وعن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:

«أفلا أكون عبدًا شكورًا.»[١]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٨٣٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٨١٩).

(٩) كثرة ذكر الله

ذكر الله حياة القلوب، وسبب طمأنينتها، وعنوان محبة العبد لربه.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال سبحانه:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أمر الله تعالى عباده المؤمنين بكثرة ذكره؛ لما فيه من الخير والفلاح.»[١]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت.»[٢]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الأحزاب، الآية (٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٤٠٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٧٧٩).

(١٠) الدعاء

الدعاء أعظم مظاهر الافتقار إلى الله، وهو دليل صدق العبودية.

قال تعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال سبحانه:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«في هذه الآية ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع عند الله.» (١)

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«الدعاء هو العبادة.»

ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. (٢)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة البقرة، الآية (١٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (١٤٧٩)، والترمذي في سننه برقم (٢٩٦٩)، وقال: حديث حسن صحيح. حديث «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» حديث صحيح ثابت من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما؛ أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٥٢) وغيرهم، وإسناده قوي، ومداره المشهور على ذر بن عبد الله، عن يُسَيْع الكندي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(١١) الخوف من الله

الخوف من الله من أجلِّ أعمال القلوب، وهو حاجز بين العبد وبين المعاصي.

قال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقال سبحانه:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: خاف القيام بين يدي الله للحساب.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله.»[٢]

وهو من الأحاديث الجامعة في بيان منزلة الدعاء من العبادة؛ إذ لم يقل ﷺ: الدعاء من العبادة فحسب، بل قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، ثم استدل بالآية التي سمى الله تعالى فيها الدعاء عبادة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، فدل ذلك على عظيم شأن الدعاء، لما يتضمنه من الافتقار والخضوع والرجاء والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الرحمن، الآية (٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٦٠)، ومسلم في صحيحه برقم (١٠٣١).

(١٢) الرجاء فيما عند الله

الرجاء من أجلِّ عبادات القلوب، وهو حسن تعلق القلب بفضل الله ورحمته، مع العمل بطاعته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقال سبحانه:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: من كان يؤمل ثواب الله وجزاءه فليخلص له العمل.»[١]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزوجل.»أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، برقم (٢٨٧٧).

(١٣) حسن الظن بالله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الكهف، الآية (١١٠).

من أعظم ما يقوي محبة العبد لربه حسن ظنه به، والثقة بوعده، واليقين برحمته.

قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سبحانه:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه:

«أنا عند ظن عبدي بي، و أنا معه إذا ذكرني.»[١]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«هذه الآية دعوة لجميع العصاة إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب إليه.»[٢]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٠٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٥).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية (٥٣).

(١٤) الزهد في الدنيا

الزهد هو قلة تعلق القلب بالدنيا، مع الأخذ منها بما يعين على طاعة الله.

قال تعالى:

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال سبحانه:

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس.» (١)

---

(١) أخرجه ابن ماجه
في سننه برقم (٤١٠٢)، وحسنه النووي، وصححه الألباني.

---

(١) قلت الحديث مروى عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس». أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، برقم (٤١٠٢)، من طريق خالد بن عمرو القرشي، عن سفيان الثوري، عن أبي حازم، عن سهل. وإسناده ضعيف جدًا؛ فإن خالد بن عمرو متروك متهم، وقد أنكر العقيلي وأبو حاتم وابن عدي ثبوت الحديث من طريق الثوري. وله طرق أخرى ضعيفة ومراسيل، حسنه بعض المتأخرين بمجموعها، والأقرب أنه لا يثبت مرفوعًا، وإن كان معناه صحيحًا.

وعلى هذا فالحديث ضعيف مرفوعًا، وطريقه المشهور شديد الضعف، وله طرق ومراسيل يشهد بعضها لأصل معناه، لكنها لا تخلو من علل؛ وقد حسنه بعض أهل العلم بمجموعها، وضعفه أو أنكره آخرون، والضعف أقرب من جهة الصناعة الحديثية.

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«الزهد ليس بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، وإنما أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك.» ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

(١٥) الورع

الورع من علامات كمال الإيمان، وهو ترك ما يخشى ضرره في الدين.

قال تعالى:

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

أخرجه ابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، رقم (٤١٠٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، بلفظ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩٣/٦، رقم ٥٩٧٢)، والحاكم في المستدرك (٣٤٨/٤، رقم ٧٨٧٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وفي إسناد ابن ماجه خالد بن عمرو القرشي، وهو متروك، فلا يصح الحديث من هذا الطريق بمفرده، وقد روي من طرق وشواهد أخرى يتقوى بها؛ ولذلك قال النووي في الأربعين: «حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة»، وحسنه جماعة من أهل العلم، وصححه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة رقم (٩٤٤). فالأقرب أن الحديث حسن لغيره بمجموع طرقه وشواهده، وإن كان طريق ابن ماجه المشهور شديد الضعف.

أما معناه فصحيح، تشهد له نصوص ثابتة في ذم التعلق بالدنيا، وفي فضل التعفف عما في أيدي الناس؛ لكن صحة المعنى لا تستلزم صحة نسبة اللفظ إلى النبي ﷺ.والله اعلم

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.»[1]

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني:

«الورع ترك ما قد يضر في الآخرة.»[2]

(١٦) العفة

العفة زينة المؤمن، وهي حفظ النفس عن المحرمات، وصيانتها عن سؤال الناس.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣].

وقال سبحانه:

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. حديث «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ» حديث صحيح من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما؛ أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٥٧١١)، وأحمد (١٧٢٣)، والدارمي (٢٥٣٢)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم في المستدرك (١٣/٢) وغيرهم. ومدار إسناده المشهور على بريد بن أبي مريم، عن أبي الحوراء ربيعة بن شيبان، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، ورجاله ثقات.

وهو أصل عظيم من أصول الورع واليقين؛ فالمؤمن يترك ما أورث قلبه ريبةً واشتباهًا إلى ما اطمأنت النفس إلى حِلّه وسلامته، ولذلك عده أهل العلم من الأحاديث التي تدور عليها قواعد الدين، وهو قريب المعنى من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما في ترك الشبهات واستبراء المرء لدينه وعرضه.

(٢) ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله.»[١]

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«التعفف هو التنزه عن أموال الناس ومسألتهم.»[٢]

(١٧) الحياء

الحياء من أشرف الأخلاق، وهو خلق الأنبياء والصالحين، وبه يحجز العبد نفسه عن المعاصي، ويبعثه على فعل الطاعات.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«الحياء من الإيمان.»[٣]

وقال الإمام النووي رحمه الله:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٤٦٩)، ومسلم في صحيحه برقم (١٠٥٣).

(٢) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة البقرة، الآية (٢٧٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٢٤)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٦).

«الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.»[١]

(١٨) حسن الخلق

حسن الخلق من أثقل الأعمال في ميزان العبد، وهو من أكمل صفات المؤمنين.

قال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال سبحانه:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق.»[٢]

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٧٩٩)، والترمذي في سننه برقم (٢٠٠٢)، وقال: حديث حسن صحيح. حديث «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ» حديث صحيح من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه؛ أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (٢٧٥١٧)، وابن حبان (٤٨١)، وله رواية أخرى عند الترمذي (٢٠٠٢)، وشواهد متعددة في الباب.

وهو من الأحاديث العظيمة في التحفيز إلى مكارم الأخلاق؛ إذ جعل النبي ﷺ حسن الخلق من أثقل الأعمال في ميزان المؤمن يوم القيامة، وجمع في الحديث بين الترغيب والترهيب؛ فرغَّب في حسن الخلق بعظم ثقله في الميزان، وحذَّر من ضده بقوله ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ».

«حسن الخلق هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.»[١]

(١٩) بر الوالدين

بر الوالدين من أعظم القربات بعد توحيد الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال:

«الصلاة على وقتها.» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين.»[٢]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«قرن الله الإحسان إلى الوالدين بعبادته؛ لعظيم حقهما.»[٣]

(٢٠) صلة الرحم

صلة الرحم سبب لطول العمر، وسعة الرزق، ونيل رضا الله.

قال تعالى:

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، مؤسسة الرسالة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٢٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٨٥).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الإسراء، الآية (٢٣).

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال سبحانه:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه.»[١]

وقال الإمام القرطبي رحمه الله:

«صلة الرحم من أجلِّ الطاعات، وقطيعتها من أعظم الكبائر.»[٢]

(٢١) الرحمة

الرحمة خلق الأنبياء، وهي سبب لرحمة الله بالعبد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٩٨٦)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٥٥٧).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الرعد، الآية (٢١).

قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.»[١]

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«بعث الله محمدًا ﷺ رحمة لجميع الخلق، فمن قبلها سعد في الدنيا والآخرة.»[٢]

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩٤١)، والترمذي في سننه برقم (١٩٢٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الأنبياء، الآية (١٠٧).

(٢٢) الرفق

الرفق من أعظم أسباب نجاح الدعوة، ودوام الألفة بين الناس.

قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

وعن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:

«إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله.»[١]

وقال الإمام النووي رحمه الله:

«فيه الحث على الرفق، وبيان عظيم فضله.»[٢]

(٢٣) العفو وكظم الغيظ

من مكارم الأخلاق التي أثنى الله على أهلها العفو عن الناس، وكظم الغيظ عند القدرة على الانتقام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٩٢٧)، ومسلم في صحيحه برقم (٢١٦٥).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«الكاظمين غيظهم، فلا يعملونه مع قدرتهم، بل يصبرون ويعفون.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.»[٢]

(٢٤) الإنفاق والجود

الإنفاق في سبيل الله من أعظم القربات، وهو دليل على صدق الإيمان، وسلامة القلب من الشح.

قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦١١٤)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٠٩).

وقال سبحانه:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«في هذه الآية الحث على الإنفاق في وجوه الخير، ووعد المنفقين بالأجر العظيم.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«ما نقصت صدقة من مال.»[٢]

(٢٥) الإيثار

الإيثار من أعظم أخلاق المؤمنين، وهو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس ابتغاء مرضاة الله.

قال تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: يقدمون المحتاجين على أنفسهم، مع حاجتهم إلى ما بذلوه.»[١]

---

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة البقرة، الآية (٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، برقم (٢٥٨٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قصة ضيف رسول الله ﷺ الذي آثره أحد الأنصار بطعامه، فنزلت فيه هذه الآية.[٢]

(٢٦) التواضع

التواضع رفعة في الدنيا والآخرة، وهو خلق الأنبياء والصالحين.

قال تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال سبحانه:

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: متواضعين، ساكنين، وقورين.»

العزو: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الفرقان، الآية (٦٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.»[٣]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الحشر، الآية (٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٨٨٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٠٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، برقم (٢٥٨٨).

(٢٧) الإصلاح بين الناس

الإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال، لأنه يجمع القلوب، ويطفئ نار الفتنة.

قال تعالى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقال سبحانه:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«الإصلاح بين الناس من أفضل أعمال البر.»[١]

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين.»[٢]

---

(١) العزو: الطبري، جامع البيان، تفسير سورة النساء، الآية (١١٤).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٤٩١٩)، والترمذي في سننه برقم (٢٥٠٩)، وقال: حديث حسن صحيح. حديث «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟... إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ» حديث صحيح من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه؛ أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩) وصححه، وأحمد (٢٧٥٠٨)، وابن حبان (٥٠٩٢)، والدارمي والبيهقي وغيرهم.

(٢٨) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بهذه الشعيرة تحفظ الشريعة، ويظهر الخير، ويقل الشر.

قال تعالى:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سبحانه:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«إنما استحقوا الخيرية لقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.»[١]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده...»[١]

وللحديث شواهد صحيحة في عظيم شأن إصلاح ذات البين وخطورة الشحناء والتدابر؛ فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»، أخرجه مسلم (٢٥٦٥).

والمراد بالصيام والصلاة والصدقة هنا – كما بيَّنه أهل العلم – نوافل هذه العبادات، لا فرائضها؛ فلا يكون إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة المفروضة أو صيام رمضان أو الزكاة الواجبة. وإنما عظَّم الشارع شأن الإصلاح لما يترتب عليه من حفظ جماعة المسلمين وتأليف القلوب وإزالة الشحناء، في مقابل فساد ذات البين الذي وصفه النبي ﷺ بأنه «الْحَالِقَةُ»؛ أي التي تستأصل الدين وتفسد ما بين المسلمين، لا أنها تحلق الشعر.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة آل عمران، الآية (١١٠).

(٢٩) قبول الحق

من أجلِّ صفات المؤمن أن يقبل الحق إذا ظهر له، ولو جاء على لسان من هو دونه.

قال تعالى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: لا يحيدون عن الحق، ولا يعدلون عنه إلى غيره.»[٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى... من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى.»[٣]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٤٩).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، دار طيبة، تفسير سورة النور، الآية (٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، برقم (٧٢٨٠).

(٣٠) حفظ اللسان

حفظ اللسان من دلائل كمال الإيمان، وسبب لسلامة القلب، ونجاة العبد يوم القيامة.

قال تعالى:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقال سبحانه:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«أي: قولوا للناس قولًا حسنًا جميلًا.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت.»[٢]

---

(١) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة البقرة، الآية (٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٠١٨)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٧).

(٣١) غض البصر

غض البصر يحفظ القلب، ويزكي النفس، وهو من أسباب العفة والطهارة.

قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

وقال سبحانه:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يغضوا أبصارهم عما حرم عليهم."[١]

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال:

سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: «اصرف بصرك.»[٢]

(٣٢) حفظ الفرج

حفظ الفرج من صفات المؤمنين المفلحين، وهو عنوان الطهارة والعفة.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥].

---

(١) »ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النور، الآية (٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، برقم (٢١٥٩).

وقال سبحانه:

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: يكفونها عن الحرام.»[١]

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة.»[٢]

(٣٣) تعظيم شعائر الله

تعظيم شعائر الله من دلائل تقوى القلوب، وهو عنوان تعظيم أمر الله ونهيه.

قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: فإن تعظيمها من إخلاص القلوب وتقواها.»[٣]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه.»[١]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة المؤمنون، الآية (٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، برقم (٦٤٧٤).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الحج، الآية (٣٢).

(٣٤) تعظيم حرمات الله

تعظيم حرمات الله من علامات صدق الإيمان، وهو دليل على إجلال أوامر الله ونواهيه.

قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: اجتناب معاصيه ومحارمه، وامتثال أوامره.»[٢]

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه.»[٣]

(٣٥) المسارعة إلى الخيرات

المؤمن لا يكتفي بفعل الخير، بل يسارع إليه قبل فواته.

قال تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٢٢٣)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٧٦١).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الحج، الآية (٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه برقم (١٥٩٩).

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«يبادرون إلى طاعة الله، ولا يؤخرونها.»[١]

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو غنًى مُطغيًا، أو مرضًا مُفسدًا، أو هرمًا مُفنِّدًا، أو موتًا مُجهزًا، أو الدجالَ فشرُّ غائبٍ يُنتظر، أو الساعةَ فالساعةُ أدهى وأمرُّ»."[٢]

(٣٦) كثرة الاستغفار

الاستغفار شعار الصالحين، وهو سبب لمغفرة الذنوب، ونزول الرحمات.

قال تعالى:

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

---

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة المؤمنون، الآية (٦١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، برقم (٢٣٠٦)، وقال: «حديث حسن غريب». وفي إسناده محرر بن هارون، وهو ضعيف؛ ولذلك فالحديث ضعيف الإسناد، وإن كان معناه العام صحيحًا تشهد له نصوص المبادرة إلى الأعمال الصالحة.

حديث «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا...» أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) وقال: «حسن غريب»، والحاكم في المستدرك (٣٤١/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم. ومداره على محرز بن هارون عن الأعرج عن أبي هريرة، وقد تفرد به محرز عن الأعرج، وهو ضعيف عند جماعة من أئمة النقد؛ ولذلك فإسناد الحديث لا يخلو من ضعف، وإن حسنه الترمذي. وأما أصل معناه في الحث على المبادرة بالطاعات قبل حلول الموانع والفتن فصحيح ثابت بأحاديث صحيحة، وفي مقدمتها حديث مسلم (١١٨): «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم».

وقال سبحانه:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«مدحهم بقيام الليل، ثم ختمه بالاستغفار عند السحر.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«والله إني لأستغفر الله و أتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة.»[٢]

(٣٧) الصبر على أذى الناس

من كمال الإيمان احتمال أذى الخلق ابتغاء وجه الله.

قال تعالى:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال سبحانه:

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: صبر على الأذى، وعفا وصفح، فإن ذلك من محاسن الأخلاق.»[٣]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الذاريات، الآية (١٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٣٠٧).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الشورى، الآية (٤٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم.» (١)

(٣٨) محبة المؤمنين والنصح لهم

من دلائل صدق الإيمان محبة المؤمنين، وإرادة الخير لهم.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«فيها الحث على سلامة الصدر للمؤمنين، والدعاء لهم.»(١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.»(٢)

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الحشر، الآية (١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٣)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٥).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»."[1]

(٣٩) الثبات على الحق

الثبات على الحق من أجلِّ نعم الله على عبده، ولا سيما عند الفتن.

قال تعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سبحانه:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«يثبتهم الله في الدنيا والآخرة على الإيمان.»[1]

---

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم (٥٠٢٢)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، برقم (٤٠٣٢)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (٣٨٨). وأخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٥٠٧)، من رواية يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ، وقال: كان شعبة يرى أنه ابن عمر. ومدار الحديث على الأعمش عن يحيى بن وثاب، ورجاله ثقات، غير أن الأعمش رواه بالعنعنة، وقد رواه عنه شعبة مع شدة تحريه في روايات المدلسين؛ فالحديث صحيح بمجموع طرقه، والاختلاف في تسمية الصحابي لا يضر.

وقد صحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد. صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وصحيح سنن ابن ماجه. صححه شعيب الأرناؤوط، ووصف إسناده في موضع آخر بأنه قوي.

وقال ابن حجر عن طريق ابن ماجه: «بسند حسن».

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان أكثر دعاء النبي ﷺ:

«يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك.»[1]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». فقيل له: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء»."[2]

(٤٠) اتباع رسول الله ﷺ

اتباع رسول الله ﷺ هو أعظم طريق يوصل إلى محبة الله تعالى، بل هو الميزان الذي توزن به جميع الأعمال، فلا تصح دعوى محبة الله إلا بتحقيق متابعة نبيه ﷺ، ولذلك جعل الله الاتباع علامة المحبة، وثمرة لها.

قال تعالى:

---

(١) الطبري، جامع البيان، تفسير سورة إبراهيم، الآية (٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن، برقم (٢١٤٠)، وقال: «حديث حسن»، وأخرجه أحمد في المسند برقم (١٢١٢٨)، وابن ماجه في سننه برقم (٣٨٣٤). ومداره على الأعمش، عن أبي سفيان طلحة بن نافع، عن أنس. وأبو سفيان صدوق فيه لين، وقد اختلف في ثبوت سماعه من أنس، غير أن الحديث جاء من طرق وشواهد متعددة، منها حديث أم سلمة رضي الله عنها عند الترمذي برقم (٣٥٢٢)، وأحمد برقم (٢٦٦٧٩)، وثبت معناه في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم برقم (٢٦٥٤)؛ فالحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال جل وعلا:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه، حتى يتبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله.»[١]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»:[٢]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم (٤٣).

وعن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:

«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد.»[1]

فاتباع النبي ﷺ ليس خصلة من خصال الخير فحسب، بل هو أصلها جميعًا، إذ لا يقبل الله قولًا ولا عملًا إلا إذا كان خالصًا له، موافقًا لسنة رسوله ﷺ، ولذلك ختمنا به هذا الفصل؛ لأنه الجامع لجميع الصفات السابقة، فمن صدق في اتباع رسول الله ﷺ، رزقه الله الإخلاص، والصدق، والتقوى، والصبر، وسائر الأخلاق الفاضلة، وكان على رجاء أن ينال الوعد الكريم الذي ختم الله به آية المحبة:

﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

خاتمة الفصل

وبعد هذا العرض يتبين أن الطريق إلى محبة الله تعالى ليس دعوى باللسان، ولا أمنيةً في القلب، وإنما هو طريق يجمع بين صحة الاعتقاد، وإخلاص العبادة، وحسن الخلق، وصدق المعاملة، ودوام التزكية، والاقتداء برسول الله ﷺ. فمن جمع هذه الخصال، وسار عليها حتى لقي ربه، كان على رجاء أن يكون من الذين قال الله فيهم:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، برقم (١٧١٨).

المبحث الرابع:

ثمرات محبة الله لعبده في الدنيا والآخرة

إذا أحب الله عبدًا ظهرت آثار هذه المحبة في قلبه، وأعماله، وحياته، بل وفي أهل السماء وأهل الأرض، ثم كانت ثمرتها العظمى يوم القيامة رضوان الله الأكبر. وقد دل الكتاب والسنة على ثمرات عظيمة لمحبة الله لعبده، من أهمها ما يأتي:

(١) محبة أهل السماء وأهل الأرض له

إذا أحب الله عبدًا نادى في أهل السماء بحبه، فيحبه الملائكة، ثم يوضع له القبول في الأرض.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:[١]

«أي: محبة في قلوب عباده المؤمنين.»:

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة مريم، الآية (٩٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبه... ثم يوضع له القبول في الأرض.»[1]

(٢) التوفيق للطاعات، والحفظ من المعاصي

من أعظم ثمرات محبة الله أن يوفق عبده لكل خير، ويصرفه عن الشر.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه:

«...ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»[2]

قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«أي: يوفقه الله فلا يسمع إلا ما يرضيه، ولا ينظر إلا إلى ما أباحه، ولا يعمل إلا بطاعته.»[1]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم (٦٠٤٠)، ومسلم في صحيحه، برقم (٢٦٣٧).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، برقم (٦٥٠٢).

(٣) إجابة الدعاء

إذا أحب الله عبده قربه منه، وأجاب دعاءه، وأعطاه سؤله، وحفظه من كل سوء.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في الحديث القدسي السابق:

«ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه.» سبق تخريجه.

(٤) الفوز برضوان الله والجنة

أعظم ثمرات محبة الله لعبده أن ينال رضاه، وذلك أعظم من نعيم الجنة كلها.

قال تعالى:

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال سبحانه:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

---

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة... أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا.» أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٨٢٩).

(٥) الأمن يوم القيامة

إذا أحب الله عبده أمَّنه يوم الفزع الأكبر، وثبته عند الشدائد.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تتنزل عليهم الملائكة أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التى كنتم توعدون﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال سبحانه:

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«تبشرهم الملائكة عند الموت، وفي القبر، ويوم البعث بالأمن والبشارة.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» [١]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، تفسير سورة فصلت، الآية (٣٠).

(٦) حسن الخاتمة

من أعظم دلائل محبة الله لعبده أن يختم له بخير.

قال تعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله.» قيل: وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل موته، ثم يقبضه عليه.»[١] أخرجه الترمذي في سننه برقم (٢١٤٢)، وأحمد في المسند، وصححه الألباني.

(٧) النجاة من النار

محبة الله لعبده سبب لنجاته من عذابه، وفوزه برحمته.

قال تعالى:

﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٦٦٠)، ومسلم في صحيحه برقم (١٠٣١).

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله.» (١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله». فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت». (٢)

(٨) الفوز بالنظر إلى وجه الله الكريم

وهذه أعظم ثمرة ينالها أهل محبة الله، إذ ليس في الجنة نعيم أعظم من رؤية وجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٢٥)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، برقم (٢١٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وأخرجه أحمد في المسند برقم (١٢٠٣٦)، وابن حبان في صحيحه برقم (٣٤١)، والحاكم في المستدرك برقم (١٢٥٧)، وصححه. ومداره على حميد الطويل عن أنس، وحميد ثقة، وقد رواه عنه جماعة من الأثبات؛ فالحديث صحيح. وأما زيادة: «ثم يقبضه عليه» فقد جاءت في رواية مطولة عن أنس، وفي شاهد عمرو بن الحمق رضي الله عنه عند أحمد والطبراني، وهي ثابتة بمجموع طرقها.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.»[١]

عن صهيب الرومي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عزوجل».

وفي رواية:

ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][٢]

والحديث من أصح ما ورد في إثبات رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الجنة، وأنها أعظم نعيم أهلها وأحبُّه إليهم؛ إذ لم تُعط نفوسهم بعد دخول الجنة والنجاة من النار نعمةً أحبَّ إليها من النظر إلى وجه الله الكريم.

وقوله ﷺ: **«فيكشف الحجاب»** إثبات لما أثبته النبي ﷺ من غير تكييف ولا تمثيل، على الوجه اللائق بجلال الله تعالى.

وقوله:«فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم»

---

(١) بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة يونس، الآية (٢٦).

(٢) .أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، برقم (١٨١)، وهذا لفظه.

دليل على أن لذة النظر إلى الله تعالى تفوق جميع لذات الجنة ونعيمها؛ لأن أهلها، مع ما هم فيه من النعيم المقيم، لا يجدون شيئًا أحبَّ إليهم من رؤية ربهم عز وجل.

وأما قوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

فقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي رؤية الله عز وجل.

فاللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

خاتمة المبحث

وبعد استعراض هذه الثمرات المباركة يتبين أن محبة الله لعبده ليست مجرد منزلة قلبية، بل هي حياةٌ طيبة في الدنيا، وأمنٌ عند الموت، وتوفيقٌ في الطاعة، وقبولٌ بين الخلق، وإجابةٌ للدعاء، ورضوانٌ في الآخرة، ثم ينتهي المطاف بأعظم نعيم يناله أهل الجنة، وهو النظر إلى وجه الله الكريم. وما أعظمها من غاية! وما أجلها من منحة! فحقيق بكل مؤمن أن يبذل عمره في تحصيل الأسباب التي توصله إلى هذه المنزلة العظيمة.

الفصل الخامس:

موانع المحبة

موانع محبة الله تعالى

تمهيد

كما أن الله سبحانه فتح لعباده أبوابًا واسعة توصل إلى محبته ورضوانه، فقد حذرهم من أخلاق وأعمال تحجبهم عن هذه المنزلة العظيمة، بل صرح في كتابه بأنه لا يحب أصحابها، ليعلم المؤمن أن السير إلى الله لا يكون بتحصيل الفضائل وحدها، بل لا بد مع ذلك من اجتناب الرذائل، فإن القلب لا يجتمع فيه كمال محبة الله مع الإصرار على ما يبغضه سبحانه.

ولهذا جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، حتى يسير المؤمن إلى ربه بين الخوف والرجاء، فيحرص على كل ما يقربه من محبة الله، ويجتنب كل ما يحرمه منها.ونحن سنمر عليها سريعا لانا أفردنا كتابا لأمراض القلوب وسيتضمن كل هذه الموانع والله المستعان

المبحث الأول

الصفات التي نص القرآن على أن الله لا يحب أهلها

(١) الكفر

الكفر بـالله تعـالى أعظـم الـذنوب، وأشـدها حرمانًـا للعبـد مـن محبـة ربـه، ولـذلك تكرر في القرآن التصريح بأن الله لا يحب الكافرين.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«فيها بيان أن الكفر سبب لسخط الله تعالى، وحرمان صاحبه من رحمته.»[١]

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أبغـض النـاس إلـى الله ثلاثـة: ملحـد فـي الحـرم، ومبتـغٍ فـي الإسـلام سـنة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دمِ امرئٍ بغير حق لهريق دمه.»[٢]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق، برقم (٦٨٨٢).

وإذا كان هذا الوعيد الشديد في حق من انتهك حرمة الحرم، أو أحيا سنن الجاهلية، أو سفك الدم الحرام، فكيف بمن جحد حق الله تعالى، وكفر به، وأشرك معه غيره؟! فلا جرم أن كان الكفر أعظم الذنوب، وأشدها حرمانًا لصاحبه من محبة الله تعالى.

(٢) الظلم

الظلم من أعظم الذنوب التي توعد الله أصحابها، وهو سبب لخراب الأمم، وفساد المجتمعات، وحرمان العبد من محبة ربه سبحانه.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«الظلم سبب لسخط الله وعقابه، وأعظمه الشرك بالله عز وجل.»[١]

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى:

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة آل عمران، الآية (٥٧).

«يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا...»[1]

فإذا كان الله سبحانه قد نزه نفسه عن الظلم، وحرمه بين عباده، ثم أخبر أنه لا يحب الظالمين، علم العاقل أن الظلم من أعظم أسباب سخط الله، وأن العدل من أقرب الطرق إلى محبته ورضوانه.

(٣) الاعتداء

الاعتداء مجاوزة ما حدَّه الله لعباده، وهو خلق يبغضه الله في الأقوال والأفعال، وفي العبادات والمعاملات.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقال سبحانه:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«أي: لا يحب المتجاوزين ما أمرهم به إلى ما نهاهم عنه.» **الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة البقرة، الآية (١٩٠).**

وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهوروالدعاء.»[١]

فالاعتداء لا يقتصر على ظلم الناس، بل قد يكون في العبادة، أو الدعاء، أو استعمال النعم، ولذلك جاء النهي عنه عامًا؛ لأنه خروج عن حد الاعتدال الذي جاءت به الشريعة.

(٤) الفساد

الإفساد في الأرض من أعظم الجرائم، لأنه يهدم الدين، ويضيع الحقوق، وينشر الشر بين الناس.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء، برقم (٩٦)، وأحمد في المسند، وصححه الألباني.

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«المفسدون هم الساعون في الأرض بالمعاصي، وإهلاك الحرث والنسل، وإبطال الحق.»[١]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ اللهَ يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا؛ فيرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»."[٢]

---

(١) بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة المائدة، الآية (٦٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، برقم (١٧١٥)،قال:

حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وهذا هو لفظ مسلم في الطريق الأول.

ثم رواه مسلم من طريق آخر فقال: وحدثنا شيبان بن فروخ، أخبرنا أبو عوانة، عن سهيل، بهذا الإسناد مثله، غير أنه قال: «ويسخط لكم ثلاثًا»، ولم يذكر: «ولا تفرقوا».

ففي الرواية الثانية جاء لفظ «يسخط» بدل «يكره»، وسقطت منها جملة «ولا تفرقوا»، وهي ثابتة في الطريق الأول الصحيح.

وقوله: «قيل وقال» هو الاشتغال بكثرة نقل الكلام من غير تثبت ولا فائدة، فيقول المرء: قيل كذا، وقال فلان كذا، ولا يتحرى صحة ما ينقله، وقد يجره ذلك إلى الغيبة والنميمة والكذب ونشر الإشاعات.

وقوله: «وكثرة السؤال» يشمل الأسئلة المتكلفة التي لا حاجة إليها، وكثرة سؤال الناس أموالهم، والسؤال عما لم يقع مما يؤدي إلى التشدد والتنطع، ولا يدخل فيه السؤال النافع الذي يقصد به تعلم العلم والعمل به.

فكل ما يؤدي إلى فساد الدين، أو فساد الأخلاق، أو فساد الأموال، أو تمزيق جماعة المسلمين، فهو داخل في الإفساد الذي يبغضه الله تعالى.

(٥) الخيانة

الخيانة خلق ذميم ينافي الإيمان، ويهدم الثقة بين الناس، ولذلك نفى الله محبته عن أهلها.ولا يتصف به إلا كل من خلا قلبه من تعظيم البارى سبحانه وتعالى والتنصيص عليها يدل على عظم جرمها وشديد خطبها عند الله تعالى فالله لا يحب أمثالهم ولا يرضى قط عن فعالهم نسأل الله العفو والعافية

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: لا يحب من كانت الخيانة والأثم من شأنه وعادته.»[١]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».[١]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة النساء، الآية (١٠٧).

فالخيانة ليست ذنبًا عارضًا فحسب، بل هي خصلة من خصال النفاق، ومن لازمها حُرم محبة الله، وفقد ثقة الناس، واستحق المقت في الدنيا والآخرة.

(٦) الكبروالاختيال

الكبر من أخطر أمراض القلوب، وهو أول ذنب عُصي الله به في السماء، حين استكبر إبليس عن السجود لآدم، ولذلك نفى الله محبته عن المتكبرين والمختالين.

قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

---

(١) (١)أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، برقم (٣٤)، وهذا لفظه. وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٨)، بلفظ:

«أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خَلَّةٌ منهن كانت فيه خَلَّةٌ من نفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر».

وفي رواية سفيان عند مسلم:

«وإن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق».

والحديث متفق على صحته، وإسناده صحيح متصل؛ ومداره على الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ورجاله ثقات أئمة، وقد أخرجه الشيخان في صحيحيهما.

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«المختال هو المعجب بنفسه، والفخور هو الذي يفتخر على الناس بما آتاه الله.»[١]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. فقال ﷺ: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس.» أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).**

فالمتكبر لا يحجبه كبره عن الناس فحسب، بل يحجبه قبل ذلك عن قبول الحق، ولذلك فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، ومن كانت هذه حاله فقد تعرض لسخط الله، وابتعد عن محبته. والمتكبر يعاقبه الله تعالى بنقيض قصده وبضد مراده فيحشره الله مثل الذر صغير الحجم قليل النفع ليريه عقاب نفسه فى نفسه التى ترفع بها بثوب ليس من صنيعه وإنما

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة لقمان، الآية (١٨).

محض فضل من الله وكرم عطاء من مولاه يريه ذلك قبل عرضه ليزداد حسرة ونفرة من حاله التى كان عليها فى الدنيا بشؤم فعله ويزداد حسرة على مآله فى الآخرة نسأل الله تعالى العفو والعافية اللهم آمين يارب العالمين [١]

ومعنى قوله ﷺ:

«لا يزن عند الله جناح بعوضة»

أي: لا قدرله عند الله ولا منزلة؛ لخلوه من الإيمان والعمل الصالح، وليس المراد ذم ضخامة الجسم أو السمن في ذاته، وإنما بيان أن الصورة والهيئة والجاه لا تنفع صاحبها إذا خلا من التقوى. وقد قال النووي: أي لا يعدل في القدروالمنزلة جناح بعوضة، فلا قدرله.

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة».

ثم قال ﷺ:«اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، برقم (٤٧٢٩)، من طريق المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه.وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٥)، من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ:

«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾».

والحديث متفق على صحته، وإسناده صحيح متصل، ورجاله أئمة ثقات

والحديث دليل على أن الميزان يوم القيامة إنما يثقل بالإيمان والعمل الصالح، لا بكبر الأجسام ولا بكثرة الأموال ولا بعلو المنزلة بين الناس، كما قال تعالى:﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

(٧) الإسراف

الإسراف خلق مذموم، سواء كان في الأموال، أو المطاعم، أو المشارب، أو سائر شؤون الحياة. فالإسراف يدل على شره النفس وترفها وعدم قناعتها بما ينفعها بل يتعدى سرفها إلى محبة ما يضرها ولذلك فأصحاب الإسراف أكثرهم فى عمه وحمق وأقرب إلى الوقوع فى المغاضب والمناهى والكسل عن الطاعات والمراضى .

قال تعالى:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«الإسراف هو مجاوزة الحد فيما أباح الله.»[١]

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الأعراف، الآية (٣١).

وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:«ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ، بحسب ابن آدم أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسه».[1]"

فالإسلام دين الاعتدال، والإسراف دليل على غلبة الشهوة، وضعف شكر النعمة، ولذلك نفى الله محبته عن المسرفين.

(٨) الفرح المذموم

ليس كل فرح مذمومًا، وإنما المذموم هو الفرح الذي يحمل صاحبه على البطر، والأشر، ونسيان المنعم سبحانه.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

---

(١) فحديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه». أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، برقم (٢٣٨٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد في المسند برقم (١٧١٨٦)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٦٧٦٩)، وابن ماجه في سننه برقم (٣٣٤٩). ومدار طريق الترمذي على إسماعيل بن عياش عن أبي سلمة الحمصي وحبيب بن صالح، عن يحيى بن جابر، عن المقدام. وإسماعيل بن عياش صحيح الحديث عن الشاميين، وهؤلاء من أهل الشام. وقد ذكر أبو حاتم أن رواية يحيى بن جابر عن المقدام مرسلة، إلا أن طريق أحمد جاء فيه تصريح يحيى بقوله: «سمعت المقدام»، وإسناده صحيح؛ فالحديث صحيح متصل، والعلة المحتملة مدفوعة بالتصريح الثابت بالسماع.وينبغى التنيه الى أن لفظ الترمذى أكلات وعند ابن ماجه لقيمات والمحفوظ لفظ من بطن وليس من بطنه وذكر الضمير لا يضر بالمعنى ولكن ينبغى التنبيه على صحة اللفظ الوارد بالحديث وجاء فى بعض الروايات فإن غلبته نفسه بدل لا محالة والله أعلم

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: لا تفرح فرح البطر والأشر، ولا تبغِ بما آتاك الله الفساد.» [١]

إن أعظم البطر والأشر والفتنة أن يرى الإنسان نفسه أو أدنى سبب لنفسه ولو بمقدار ذرة فيما أتاه الله من فضل وأسبغ عليه من نعمة سواء تحصيل علم او مال أو وجاهة أو قبول فكل ذلك من فضل الله على الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون فلما فقدوا العلم فقدوا الشكر المستوجب لثبوت العلم والازدياد فيه واما فقدوا الشكر وقعوا فى الكفر بالعجب والكبر الذى جرهم إلى نسبة ذلك إلى نفسه وعقله وفهمه وفى الزمان ينسبه إلى شطارته وفهلوته ويقصد بذلك استخدام ذكائه ودهائه فى جلب المال من حله أو من غير حله إنه لم ينظر إلى عاقبة من قال " إنما أوتيته على علم عندى "[القصص: ٧٨] عاقبه الله تعالى وجعله آية لمن خلفه على قبح قولته وسوءة جملته التى أعقبته خسارة الدنيا والآخرة قال تعالى " فخسفنا به وبداره الأرض " [القصص : ٨١] نسأل الله تعالى ان يسلمنا من حظوظ النفس وأن يجعلنا ممن ينسب النعمة لصاحبها .اللهم آمين يارب العالمين

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة القصص، الآية (٧٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم.» أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، برقم (٦٤٩٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد، برقم (٢٩٦٣).

فليس المذموم أن يفرح العبد بنعمة الله، وإنما المذموم أن يحمله الفرح على الكبر، والغفلة، ونسيان المنعم، كما فعل قارون، فكانت عاقبته الخسف والهلاك.

(٩) الخيلاء والفخر

الخيلاء من الأخلاق التي تمقتها الشريعة، لأنها تورث احتقار الناس، والإعجاب بالنفس.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

قال الإمام القرطبي رحمه الله:

«المختال: المتكبر، والفخور: المعدد لمناقبه على الناس.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.»[٢]

وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الكبر والخيلاء؛ إذ لم تكن عقوبته مجرد الذم، بل عوقب في الدنيا قبل الآخرة، ليكون عبرة لكل من أعجبته نفسه، ونسي أن الفضل كله لله وحده.ويدخل فى كل ذلك الفخر والخيلاء بعطاءات الله من أموال أو نسب أو علم أو أولاد أو ذلك

وأنت ترى أن العجب والكبر والفخر والاختيال سلسلة واحدة منشأها حب النفس ورؤية حظها على غيرها والله المستعان فلا بد من مجازة هذه الأمراض والقضاء عليها وقت بداية ظهورها فى النفس وذلك بوأدها فى بداياتها وذلك بما ذكرنا من أسباب دافعة الى محبة الله تعالى وتعظيمه وإجلاله وتوقيره وتقديره بالنظر ومعرفة أسمائه وصفاته وتدبر كلامه وكثرة ذكره سبحانه وتعالى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الحديد، الآية (٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم (٥٧٨٩)، ومسلم في صحيحه، برقم (٢٠٨٨).

(١٠) الخيلاء في المشي

نهى الله عن التبختر والتعالي؛ لأنه من أخلاق المتكبرين.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨].

قال الإمام القرطبي رحمه الله:

«المرح هو شدة الفرح المؤدي إلى الكبر والخيلاء.»القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الإسراء، الآية (٣٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.»[١]

فالعبد كلما ازداد تواضعًا لله رفعه الله، وكلما تعاظم على الخلق وضعه .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٥٧٨٩)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٠٨٨).

فالخيانة لا تنتهي بانتهاء الدنيا، بل تكون علامة على صاحبها يوم القيامة، يفتضح بها بين الخلائق، وذلك من أعظم صور الخزي.

(١١) حب الفساد وإشاعته

لا يقتصر الذم على من يفسد بنفسه، بل يشمل من يحب انتشار الفساد بين الناس، أو يعين عليه.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«كل من سعى في إفساد الأرض، فإن الله يبغض عمله، ولا يبارك فيه.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.»[٢]

فإذا كان المسلم مأمورًا بأن يكون مصدر أمن وسلام، فإن نشر الفساد، وإيقاع الضرر بالناس، من أعظم ما يناقض هذا الأصل، ويبعد صاحبه عن محبة الله.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة البقرة، الآية (٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٠)، ومسلم في صحيحه برقم (٤٠).

(١٢) الجهر بالسوء من القول

الإسلام دين الطهر في الأقوال كما هو دين الطهر في الأفعال، ولذلك نهى الله عن إشاعة السوء، والجهر به بين الناس.

قال تعالى:

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: يبغض الله الجهر بالسوء من الكلام، إلا من ظلمه ظالم، فله أن يخبر بظلمه، من غير اعتداء.»[١]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاة؟ قال:

«أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، و ابك على خطيئتك.» أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، برقم (٢٤٠٦)، وقال: حديث حسن.

فكم أفسدت الكلمة من القلوب، وقطعت من الأرحام، وأشعلت من الفتن، ولذلك كان حفظ اللسان من أعظم أسباب سلامة الدين.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة النساء، الآية (١٤٨).

(١٣) البغي

البغي من أسباب فساد الأمم، وهو مجاوزة الحق وظلم العباد.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم.»[١]

---

(١) فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، مثل البغي وقطيعة الرحم». أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، برقم (٤٩٠٢)، وهذا لفظه، وأخرجه الترمذي في سننه برقم (٢٥١١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٤٢١١)، وأحمد في المسند برقم (٢٠٣٧٤)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٦٧)، بلفظ: «ما ذنب أحرى...». ومدار الحديث على عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه عبد الرحمن بن جوشن، عن أبي بكرة رضي الله عنه، ورجاله ثقات، وإسناده متصل صحيح؛ فقد صرح عيينة بسماعه من أبيه في رواية الأدب المفرد، فالحديث صحيح لذاته.

والبغي وإن ظهر لصاحبه قوة وتمكينًا، فإن عاقبته الخذلان، وقد جرت سنة الله أن يجعل دائرة السوء على الباغين

(١٧) الإعراض عن الحق

إذا جاء الحق من عند الله، ثم أعرض عنه صاحبه استكبارًا أو هوى، فقد عرض نفسه لسخط الله.

قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

وقال سبحانه:

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«لا أحد أظلم ممن بلغه الحق، ثم أعرض عنه ولم يقبله.» **ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة السجدة، الآية (٢٢).**

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقيَّةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً؛

فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به»[1]

فأعظم الحرمان أن يُعرض على العبد نورالوحي، ثم يختارعليه ظلمات الهوى، ومن فعل ذلك فقد حرم نفسه من أعظم أسباب محبة الله وهدايته.

(١) . أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، برقم (٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، برقم (٢٢٨٢).

المبحث الثاني

الصفات التي ذمها القرآن والسنة، وهي من أعظم أسباب الحرمان من محبة الله تعالى

لم يقتصر القرآن الكريم على التصريح بصفات أخبر الله أنه لا يحب أهلها، بل ذم صفات أخرى كثيرة، وتوعد أصحابها، ووصفها بأنها من أخلاق المنافقين، أو الكافرين، أو الفاسقين، ورتب عليها العقوبات في الدنيا والآخرة، ولا ريب أن من اتصف بها فقد ابتعد عن أسباب محبة الله تعالى، واستوجب سخطه وعقابه، بقدر ما قام بقلبه وعمله منها.

(١) الكذب

الكذب أصل لكثير من الشرور، وهو طريق إلى الفجور، وعلامة على ضعف الإيمان، ولذلك ذمه الله ورسوله أشد الذم.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقال سبحانه:

﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«دلَّت الآية على أن الكذب من شأن أهل الكفر، وأما المؤمن فإنه يتحرى الصدق.»[1]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البريهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجوريهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا[2].

ولذلك كان السلف يعدون الكذب من أقبح الأخلاق، لأنه يفسد القلب، ويضيع الثقة، ويهدم المروءة، ويجر صاحبه إلى سائر الذنوب.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة النحل، الآية (١٠٥).

(٢) » أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، برقم (٦٠٩٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، برقم (٢٦٠٧).

(٢) الرياء

الرياء من أخطر أمراض القلوب، لأنه يفسد العمل بعد صلاح ظاهره، ويصرف العبادة عن وجه الله إلى طلب ثناء الناس.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«يراءون الناس بأعمالهم، ولا يريدون بها وجه الله.»[١]

وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء؛ إن الله تبارك وتعالى يقول يوم تُجازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون بأعمالكم في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»."[٢]

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الماعون.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، في حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، برقم (٢٣٦٣٠) في طبعة مؤسسة الرسالة، من طريق يونس بن محمد، قال: حدثنا ليث بن سعد، عن يزيد بن عبد الله بن الهاد، عن عمرو، عن

فما أخفى الرياء، وما أعظم خطره؛ إذ قد يعمل العبد العمل الصالح سنين، ثم يفسده بطلب ثناء الناس ومدحهم، ولذلك كان السلف يخافونه على أنفسهم أشد من خوفهم من كثير من الذنوب.

(٣) الحسد

الحسد من أمراض القلوب التي تفسد الإيمان، وتحمل صاحبها على الاعتراض على قضاء الله، وتمني زوال نعمة إخوانه.

قال تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

وقال سبحانه:

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال:ثم ذكرهوأخرجه إسماعيل بن جعفر في جزئه المروي ضمن حديث علي بن حجر، برقم (٣٨٤)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، في باب الإخلاص وترك الرياء، برقم (٦٨٣١) في بعض الطبعات، وبترقيم (٦٤١٢) في طبعات أخرى، من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، باللفظ المذكور.وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٤٣٠١)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، باختلاف يسير في اللفظ.وإسناده قوي إلى محمود، إلا أن سماعه من النبي ﷺ لم يثبت عند جماعة من النقاد؛ فالحديث حسن بمجموع طرقه، وقد حسنه ابن حجر، وجوَّد إسناده المنذري، وصححه بعض المتأخرين، ومعناه ثابت بأحاديث صحيحة.

«الحسد هو تمني زوال النعمة عن المحسود.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.»[٢]

أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، برقم (٤٩٠٣)، وحسنه جماعة من أهل العلم.

فالحسد أول معصية عُصي الله بها في السماء، حين حسد إبليس آدم، وأول جريمة وقعت في الأرض حين حسد قابيل أخاه هابيل، ولذلك كان من أخطر أمراض القلوب، وأبعدها عن أخلاق المؤمنين.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الفلق.

(٢) وحديث أبى هريرة فى الحسد هذا قد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب». أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد، برقم (٤٩٠٣)، من طريق سليمان بن بلال، عن إبراهيم بن أبي أسيد، عن جده، عن أبي هريرة. وإسناده ضعيف؛ لأن جد إبراهيم بن أبي أسيد مجهول، وقد قال الحافظ ابن حجر فيه: «لا يعرف»، وحكم الإمام البخاري على الحديث بأنه لا يصح. وروي نحوه عن أنس رضي الله عنه عند ابن ماجه برقم (٤٢١٠)، وفي إسناده عيسى بن أبي عيسى الحناط، وهو متروك؛ فلا يصلح طريقه لتقوية طريق أبي هريرة. فالحديث لا يثبت مرفوعًا، وإن كان النهي عن الحسد ثابتًا بأحاديث صحيحة.

(٤) العُجب والتزكية فى النفس

العجب من أخطر أمراض القلوب؛ لأنه يجعل العبد يرى نفسه بعين الكمال، وينسى فضل الله عليه، فيعتمد على عمله، ويغفل عن تقصيره، وربما احتقر غيره، فكان ذلك سببًا لهلاكه.

قال تعالى:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

وقال سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«فيه النهي عن مدح النفس والثناء عليها، فإن الله أعلم بمن اتقاه حق التقوى.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.»[٢] فالعجب لا يبدأ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة النجم، الآية (٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، برقم (٥٧٨٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، برقم (٢٠٨٨).

باللسان، وإنما يبدأ في القلب، ثم يظهر في النظر إلى النفس، واحتقار الآخرين، ونسيان فضل الله. ولذلك كان السلف يخافون العجب أكثر من خوفهم من كثير من المعاصي الظاهرة؛ لأن العاصي قد يتوب، أما المعجب بنفسه فيظن أنه قد بلغ الغاية، فلا يرى لنفسه تقصيرًا يستوجب التوبة.

(٥) حب الشهرة والرياسة

من أخطر ما يفسد الإخلاص أن يتعلق القلب بمحبة الظهور، وطلب المنزلة عند الناس، فإن كثيرًا من الأعمال الصالحة يفسدها طلب السمعة والثناء.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«أي: لا يطلبون رفعةً على الناس، ولا تكبرًا عليهم.» **الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة القصص، الآية (٨٣).**

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه.» (١)

فطلب الشرف والجاه إذا استولى على القلب أفسد الدين، كما يفسد الذئبان الجائعان قطيع الغنم، ولذلك كان السلف يفرون من الشهرة، ويعدون خفاء العمل نعمة من نعم الله.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، برقم (٢٣٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد في المسند،برقمفرُقم في بعض الطبعات (١٥٢٢٤) و**(١٥٢٣٣)**، وفي طبعة مؤسسة الرسالة برقم (١٥٧٩٤).من طريق زكريا بن أبي زائدة، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن ابن كعب بن مالك، عن أبيه. ورجال إسناده ثقات، وابن كعب غير مسمى، لكنه أحد عبد الله أو عبد الرحمن ابني كعب، وكلاهما ثقة معروف بالرواية عن أبيه؛ فلا يضر إبهامه. فالحديث صحيح، ولا توجد في إسناده علة قادحة.وأخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، باللفظ نفسه أو بنحوه.
وطريق ابن عمر رضي الله عنهما أشار الترمذي إلى أنه رُوي في الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما، ثم قال: «ولا يصح إسناده».فالعمدة ليست على رواية ابن عمر، وإنما على حديث كعب بن مالك رضي الله عنه، وهو الطريق الصحيح المحفوظ.

(٦) الغل والحقد

سلامة الصدر من أجلِّ نعم الله على عبده، والغل والحقد من أشد ما يمزق القلوب، ويفسد الأخوة بين المؤمنين.

قال تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقال سبحانه:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«هذه الآية من أعظم ما يستدل به على فضل سلامة الصدر للمؤمنين.»[١]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانًا.»[٢]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الحشر، الآية (١٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، برقم (٦٠٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، برقم (٢٥٥٩).

فالقلوب السليمة هي التي تدخل الجنة بغير غل ولا حقد، ومن أراد أن يعيش مطمئن القلب، فليكثر من الدعاء الذي علمه الله لعباده: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

(٧) سوء الظن بالمسلمين

من أمراض القلوب الخفية التي تفسد الأخوة الإيمانية سوء الظن بالمسلمين، فإنه يورث الريبة، ويقطع أواصر المحبة، ويحمل صاحبه على التجسس والغيبة والبهتان.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله.»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا.»[٢]

فكم من أخوةٍ قطعتها الظنون، وكم من قلوبٍ أفسدها الوهم، والمؤمن يحمل كلام إخوانه على أحسن المحامل، حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الحجرات، الآية (١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، برقم (٦٠٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، برقم (٢٥٦٣).

(٨) الغفلة

الغفلة من أعظم أمراض القلوب، لأنها تحجب العبد عن ذكر ربه، وتنسيه آخرته، حتى يعيش للدنيا وحدها.

قال تعالى:

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«أي: جعلنا قلبه غافلًا عن ذكر الله، مشتغلًا بهواه.» **الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الكهف، الآية (٢٨).**

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت.»[١]

فالغفلة موت للقلب وإن كان الجسد حيًا، وأول علامات حياة القلب كثرة ذكر الله تعالى.

---

(١) خرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، برقم (٦٤٠٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، برقم (٧٧٩).

(٩) قسوة القلب

إذا قسا القلب لم تؤثر فيه موعظة، ولم تحركه آية، ولم يلن لذكر الله، وكانت تلك من أعظم العقوبات.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سبحانه:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بمن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم.»[(١)]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي.»[(٢)]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الحديد، الآية (١٦).

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه»، كتاب الزهد، رقم (٢٤١١)، ج٤، ص٦٠٧-٦٠٨، وقال: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب»؛ وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٤٦٠٠، ٤٦٠١)، والطبراني في «الدعاء» رقم (١٨٧٤)، والواحدي في «الوسيط» ج١، ص١٥٩، وعزاه

التخريج: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، برقم (٢٤١١)، وقال: حديث حسن غريب.

وينبغي التنبيه إلى أن قوله ﷺ: «بغير ذكر الله» لا يعني أن كل كلام الإنسان يجب أن يكون تسبيحًا وتهليلًا فقط؛ بل المراد اجتناب فضول الكلام والكلام الباطل وما لا نفع فيه. فالكلام في العلم، والتعليم، والإصلاح، والأمر بالمعروف، وقضاء مصالح الناس، وإدخال السرور عليهم، ونحو ذلك من الخير؛ داخل في الكلام المحمود.

وقسوة القلب لا تأتي فجأة، وإنما تتسلل إليه مع كثرة الذنوب، وطول الغفلة، والإعراض عن القرآن، حتى يصبح لا يتأثر بوعد ولا وعيد، ولا يلين لموعظة ولا تذكرة.

(١٠) اتباع الهوى

اتباع الهوى أصل كل انحراف، فما ضل عبد إلا حين قدم هواه على هدى الله.

قال تعالى:

السيوطي إلى ابن شاهين وابن مردويه أيضًا. وقد حسَّنه الترمذي، وضعَّفه الألباني؛ ومدار الخلاف على إبراهيم بن عبد الله بن حاطب: قال ابن القطان: لا يعرف حاله، وقال ابن حجر: صدوق روى مراسيل. فالحديث مختلف في تحسينه، وتحسين الترمذي معتبر، ولا ينبغي الجزم بضعفه دون بيان هذا الخلاف. وقد حسنه من المعاصرين الشيخ أحمد شاكر ولكن مع تحسين الترمذى وتوثيق ابن حبان للراوى المختلف فيه مع قول الحافظ ابن حجر فيه صدوق فالقول بتحسين الحديث هو ما يسبق الى القلب والله اعلم إذا انضم الى ذلك رواية مالك بلاغا لمثله عن عيسى عليه السلام والله اعلم

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال سبحانه:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا كان دينه ومذهبه[١]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به.»[٢]

قال ابن رجب في بيان معناه: إن الإنسان لا يكون كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته وإرادته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ؛ فيحب ما أمر الله ورسوله به، ويكره ما نهى الله ورسوله عنه.

---

(١) .» ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الجاثية، الآية (٢٣).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»، باب ما يجب أن يكون هوى المرء تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، ج١، ص١٢، رقم (١٥)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ؛ والبغوي في «شرح السنة»، ج١، ص٢١٢-٢١٣، رقم (١٠٤)، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ؛ وابن بطة في «الإبانة الكبرى»، رقم (٢٧٩)؛ والخطيب في «تاريخ بغداد»، ج٤، ص٣٦٩. وصححه النووي في «الأربعين»، وتعقبه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»، ج٢، ص٣٩٣-٣٩٥، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، فقال: «تصحيح هذا الحديث بعيد جدًّا من وجوه»، وبيّن علله. والحديث ضعيف الإسناد، صحيح المعنى

ثم قررقاعدة نفيسة، وهي أن المحبة الصحيحة للنبي ﷺ تقتضي المتابعة والموافقة في محبوباته ومكروهاته؛ فمن ارتكب ما يكرهه الله ورسوله أو ترك ما يحبه الله ورسوله مما وجب عليه، دل ذلك على نقص المحبة الواجبة.

ثم ربط الحديث بباب البدع والمعاصي فقال إن البدع تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، وكذلك المعاصي تقع من تقديم هوى النفس على محبة الله وما يحبه.

والهوى في أصل اللغة هو الميل والمحبة، وقد يستعمل في الميل إلى الحق أيضًا.

ولهذا فالمراد في الحديث:

أن تصبح إرادة المؤمن ومحبتُه وميلُه موافقةً لما جاء به الرسول ﷺ، بحيث لا يقدم رغبته الشخصية أو عادات الناس أو أقوال الرجال على النص الشرعي.

فاتباع الهوى هو بداية كل فتنة، أما من جعل هواه تابعًا للوحي، فقد استقام قلبه، واستقامت جوارحه، وسلك طريق محبة الله ورضوانه.

(١١) البخل والشح

البخل من أمراض القلوب التي تحرم العبد لذة البذل والإحسان، أما الشح فهو أشد منه، إذ يجمع بين منع الحق والطمع فيما في أيدي الناس، ولذلك حذر الله منه أشد التحذير.

قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«الشح هو الحرص الشديد، والبخل بما يجب بذله، ومن وقيه فقد أفلح.»[١]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم.» أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨).

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الحشر، الآية ٩

فالشح ليس مجرد خلق مذموم، بل هو دافع إلى كثير من الجرائم، ولذلك جعله النبي ﷺ من أسباب هلاك الأمم السابقة.

(١٢) الغضب

الغضب إذا خرج عن حد الاعتدال أفسد العقل، وأطلق اللسان، وأوقع صاحبه في الظلم والعدوان، ولذلك كان من أعظم أبواب الشيطان.

قال تعالى:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال سبحانه:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«يكظمون غيظهم، فلا ينفذونه فيمن غضبوا عليه.»[(١)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني. قال:

«لا تغضب.»

فردد مرارًا، قال: **«لا تغضب.»** [(١)(٢)]

---

(١) الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة آل عمران، الآية (١٣٤).

ولم ينهه النبي ﷺ عن أصل الغضب؛ لأنه أمر جبلي، وإنما نهاه عن الاسترسال معه حتى يخرجه إلى الظلم والعدوان، ولذلك كان كظم الغيظ من علامات المتقين.

وأجمل ما يقال في معناه: ليس المراد أن الإنسان يستطيع منع أصل انفعال الغضب مطلقًا، وإنما أن يجتنب أسبابه ما استطاع، فإذا وقع الغضب ملك نفسه، ولم يعمل بما يمليه عليه من قول أو فعل محرم؛ ولهذا كانت هذه الكلمة النبوية الوجيزة جامعة لأبواب عظيمة من حسن الخلق.

(١٣) قطيعة الرحم

صلة الرحم من أحب الأعمال إلى الله، وقطيعتها من أعظم أسباب الحرمان من رحمته.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: لا تغضب. فردد مرارًا، قال: لا تغضب». أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ج٨، ص٢٨، رقم (٦١١٦)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ. وأخرجه الترمذي في «جامعه»، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في كثرة الغضب، رقم (٢٠٢٠) في الترقيم المشهور، بلفظ: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: علمني شيئًا ولا تكثر علي لعلي أعيه، قال: لا تغضب، فردد ذلك مرارًا كل ذلك يقول: لا تغضب»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه». والحديث صحيح ثابت.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، برقم (٦١١٦).

قال تعالى:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ... وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«فيها الوعيد الشديد على قطيعة الأرحام.»[١]

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يدخل الجنة قاطع.» قال سفيان: يعني قاطع رحم[٢]

فمن أراد محبة الله ورحمته، فليصل رحمه، وليعف عمن ظلمه منهم، فإن الواصل الحقيقي هو الذي يصل من قطعه.

(١٤) العقوق

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، تفسير سورة محمد، الآيتين (٢٢-٢٣).

(٢) .أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، برقم (٥٩٨٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، برقم (٢٥٥٦).

بعد حق الله تعالى لا حق أعظم من حق الوالدين، ولذلك كان العقوق من أكبر الكبائر.

قال تعالى:

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «نهى الله عن أدنى مراتب الأذى، فما فوقها أولى بالنهي.»[(١)]

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين.» وكان متكئًا فجلس فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور.» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت."[(٢)]

فإذا قرن النبي ﷺ عقوق الوالدين بالشرك بالله، علمنا عظم هذه الجريمة، وأنها من أقبح ما يفسد القلب، ويورث صاحبه الشقاء في الدنيا والآخرة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، تفسير سورة الإسراء، الآية (٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، برقم (٢٦٥٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٨٧).

(١٥) حب الدنيا

حب الدنيا إذا استولى على القلب صرفه عن الآخرة، وأورثه الغفلة، وجعل همَّه جمع المال، وطلب الجاه، والتنافس على متاع زائل، حتى ينسى لقاء الله تعالى.

قال تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وقال سبحانه:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«ذم الله تعالى الدنيا، وبين سرعة زوالها، وحث على الرغبة في الآخرة الباقية.»[١]

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، و اتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء[١]

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الحديد، الآية (٢٠).

فليست الدنيا مذمومة لذاتها، وإنما المذموم أن تستولي على القلب حتى تصير أكبر همِّه، فيبيع آخرته بعرضٍ زائل، وقد كان السلف يأخذون من الدنيا ما يعينهم على طاعة الله، ولا يجعلونها غايةً يسعون إليها.

(١٦) طول الأمل

طول الأمل من أخطر أمراض القلوب؛ لأنه يحمل صاحبه على التسويف، ويقسي قلبه، ويجعله يؤخر التوبة، كأنه ضمن البقاء.

قال تعالى:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقال سبحانه:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«ألهاهم طول الأمل عن العمل للآخرة.»[٢]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطًّا مربعًا، وخطَّ في وسطه خطًّا خارجًا منه، ثم قال:

---

(١) .» أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، برقم (٢٧٤٢).

(٢) الطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الحجر، الآية (٣).

«هـذا الإنسـان، وهـذا أجلـه محـيط بـه، وهـذا الـذي هـو خـارج أملـه، وهـذه الخطـط الصـغار الأعـراض، فـإن أخطـأه هـذا نهشـه هـذا، وإن أخطـأه هـذا نهشه هذا.»[1]

وطـول الأمـل لا يمنـع مـن التخطـيط للمسـتقبل، وإنمـا المـذموم أن ينسـى العبـد قـرب الرحيـل، فيـؤخر التوبـة، ويكسـل عـن الطاعـة، ويظـن أن أمامـه عمـرًا طويلًا، مع أن الموت يأتي بغتة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، برقم (٦٤١٧).

(١٧) التسويف في التوبة والطاعة

من مكايد الشيطان أن يفتح للعبد باب "سوف"، حتى يضيع عمره في التأجيل، وربما أدركه الموت قبل أن يتوب.

قال تعالى:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال سبحانه:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أي: بادروا إلى التوبة قبل فوات الأوان.» **ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الزمر، الآية (٥٤).**

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.»[١]

فما أكثر من قال: "سأتوب غدًا"، فلم يدرك الغد، وما أكثر من أخر الطاعة حتى سبقه الأجل، والعاقل من بادر قبل أن يُحال بينه وبين العمل.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٨٤٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(١٨) الكسل عن الطاعة

الكسل يحرم العبد كثيرًا من الخيرات، وكان من صفات المنافقين أنهم يأتون العبادات متثاقلين.

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة: ٥٤].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«لا رغبة لهم في الصلاة، ولا نية صالحة فيها.» **ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النساء، الآية (١٤٢).**

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول:

«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل.....الحديث .»[١]

فالكسل لا يمنع صاحبه من الطاعة فحسب، بل يحرمه بركة العمر، ولذة العبادة، وعلو الهمة، ولذلك كان رسول الله ﷺ يستعيذ منه في دعائه كل يوم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، برقم (٦٣٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، برقم (٢٧٠٦).

(١٩) الأمن من مكر الله

من أعظم أمراض القلوب أن يأمن العبد مكر الله، فيغتر بطاعته، أو بما وسع الله عليه من النعم، وينسى أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، وأن العبرة بالخواتيم.

قال تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «أي: لا يأمن بأس الله وعقوبته إلا الهالكون.»

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الأعراف، الآية (٩٩).

وعن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال ﷺ:

«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات.» [١]

فالمؤمن يجمع بين كثرة العمل، وشدة الخوف من ردِّه، أما الغافل فيقل عمله، ويعظم أمنه، وذلك من أعظم أسباب الخذلان.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه في سننه برقم (٤١٩٨)، وصححه الألباني.

(٢٠) القنوط من رحمة الله

كما أن الأمن من مكر الله مذموم، فكذلك اليأس من رحمته، فإن المؤمن يسير إلى ربه بين الخوف والرجاء.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال سبحانه:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«هذه الآية دعوة لجميع العصاة إلى التوبة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب إليه.» **ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة الزمر، الآية (٥٣).**

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ

اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1]

وهذا هو لفظ الترمذي، وفيه: «على ما كان فيك»، بينما اللفظ الذي أورده النووي في «الأربعين» واشتهر على الألسنة: «على ما كان منك»، والمعنى متقارب

وهنا تنبيه مهم: ورد للحديث طريق آخر عن ثابت البناني عن أنس، وقد حكم أبو حاتم على ذلك الطريق بعينه بأنه منكر؛ لكن هذا لا يعني تضعيف طريق الترمذي، لأن الطريق الذي أنكره أبو حاتم غير طريق بكر المزني عن أنس الذي أخرجه الترمذي. وهذه الدقة مهمة حتى لا ينقل حكم «منكر» على أصل الحديث كله

(١) حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي...» الحديث. أخرجه الترمذي في «سننه»، كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، ج٥، ص٥٤٨، رقم (٣٥٤٠)، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»، ج٤، ص٣١٥، رقم (٤٣٠٥)، مختصرًا. وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: إسناده لا بأس به، وصححه الألباني، وحسنه شعيب الأرناؤوط. وله شاهد قوي في «صحيح مسلم» رقم (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه في قوله تعالى: «ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة». فالحديث حسن ثابت، بل صححه بعض أهل العلم.

كلام ابن رجب في الحديث

جعل الحافظ ابن رجب هذا الحديث من أعظم أحاديث الرجاء، وبيّن أنه اشتمل على ثلاثة أسباب عظيمة للمغفرة:

السبب الأول: الدعاء مع الرجاء.

فقوله سبحانه: «إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي» يدل على أن العبد ما دام متعلقًا بربه، يدعوه ويرجو عفوه ولا يقنط من رحمته، فإن أبواب المغفرة مفتوحة له. وبيّن ابن رجب أن ذنوب العبد وإن عظمت، فإن مغفرة الله وعفوه أعظم منها. وهذا الرجاء ليس مجرد أمنية فارغة؛ بل الرجاء المحمود يحمل صاحبه على الإقبال على الله، والدعاء، والتوبة، وإصلاح العمل. أما الإقامة على المعاصي مع ترك التوبة والعمل وتسميتها «رجاء» فليست هي حقيقة الرجاء الشرعي.

السبب الثاني: الاستغفار.

وهو قوله سبحانه:

«يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي».

وبيّن ابن رجب أن الاستغفار سبب عظيم للمغفرة، وأن العبد مهما كثرت خطاياه فلا ينبغي أن يمنعه عظم الذنب من الاستغفار والتوبة؛ لأن المغفرة لا يعظم عليها ذنب.

السبب الثالث: التوحيد.

وهو أعظم الأسباب، في قوله:

«يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

فالتوحيد أعظم أسباب المغفرة، وكلما كمل توحيد العبد وإخلاصه لله كان أعظم لأثره في محو الذنوب. وقد جاءت الجملة الأخيرة بأصل ثابت في صحيح مسلم .

فالقنوط يقطع العبد عن التوبة، ويغلق في وجهه باب الرجاء، مع أن الله فتح باب رحمته لكل تائب مهما عظم ذنبه.

(٢١) التعلق بغير الله

من أعظم أمراض القلوب أن يتعلق القلب بالمخلوقين أكثر من تعلقه بالخالق، فيرجوهم، أو يخافهم، أو يعتمد عليهم اعتمادًا يضعف توكله على الله.

قال تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

قال الإمام الطبري رحمه الله:

«أي: فهو كافيه، وحسبه من جميع أموره.»[١]

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال:

«كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ

(١) لطبري، جامع البيان، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، تفسير سورة الطلاق، الآية (٣).

إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». "(١)

فكلما ازداد القلب تعلقًا بالله، قوي توكله، واطمأن، واستغنى عن الخلق، ومن تعلق قلبه بغير الله وكله الله إلى من تعلق به.

(٢٢) الغرور

الغرور من أخفى أمراض القلوب، وهو أن يخدع الإنسان نفسه، فيظن أنه على خير مع تقصيره، أو يغتر بالدنيا، أو يغتر بعفو الله مع الإقامة على المعاصي.

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه»، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، ج٤، ص٦٦٧، رقم (٢٥١٦)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وأخرجه أحمد في «المسند» رقم (٢٦٦٩)، ج٤، ص٤٠٩، طبعة مؤسسة الرسالة، وإسناده صحيح، كما صححه أحمد شاكر. وله عند أحمد رواية أطول رقم (٢٨٠٣)، ج٥، ص١٨، فيها: «تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة... وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»، وحسن إسنادها الصنعاني. وقرر ابن رجب أن أصح طرق الحديث طريق حنش الصنعاني التي أخرجها الترمذي، ووصفها بأنها حسنة جيدة.

ورواية أحمد فيها طول ولفظها

"«كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ - أَوْ يَا غُلَيِّمُ - أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»

قال تعالى:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال سبحانه:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«الغرور هو الشيطان، يغر الناس بالأماني الكاذبة.» ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، تفسير سورة فاطر، الآية (٥).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.»[١]

---

(١) عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله». أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، ج٤، ص٦٣٨، رقم (٢٤٥٩)، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، وقال: «هذا حديث حسن»؛ وابن ماجه في «السنن»، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ج٢، ص١٤٢٣، رقم (٤٢٦٠)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي؛ وأحمد في «المسند»، ج٢٨، ص٣٥٠، رقم (١٧١٢٣)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة؛ والحاكم في «المستدرك» وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ومدار الطريق المشهور على أبي بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف مختلط؛ ولذلك تعقب الذهبي تصحيح الحاكم، وقال في أبي بكر: «واهٍ»، وحكم الحافظ

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾وغيرها من الإيات

فالغرور يورث الأمن الكاذب، ويصرف صاحبه عن محاسبة نفسه، حتى يفجأه الموت وهو يحسب أنه من المحسنين.

وقد اقتصرنا في هذا الكتاب على الإشارة إلى أهم أمراض القلوب، وبيان خطرها، وما يناسب المقام من أدلتها؛ لأن المقصود هنا بيان صلتها بمحبة الله تعالى، وأثرها في حرمان العبد منها. أما الحديث عن هذه الأمراض من حيث حقيقتها، وأسبابها، وآثارها، وطرق علاجها، ووسائل الوقاية منها، فذلك يحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع، وقد عزمنا - إن شاء الله تعالى، وإن قدر الله لنا البقاء وأعاننا على إتمامه - على إفراده بكتاب مستقل، نسأل الله أن يرزقنا فيه الإخلاص والقبول، وأن ينفع به عباده.

ابن حجر والألباني وشعيب الأرناؤوط بضعف إسناده. فالحديث حسن عند الترمذي، وصححه الحاكم، والأقرب من جهة الصناعة الحديثية ضعف إسناده، مع صحة معناه وثبوته بأصول الكتاب والسنة.

وأما لفظ: «وتمنى على الله الأماني» فمشهور في كتب الشرح والجوامع،وليس فى الاصل والله اعلم وإن كان إسناد الحديث على الراجح ضعيفًا، فإن معناه ثابت في القرآن والسنة.

المبحث الثالث :

آثار أمراض القلوب في الدنيا والآخرة

إن أمراض القلوب لا يقتصر أثرها على صاحبها، بل تمتد إلى دينه، وأخلاقه، وعلاقته بربه، ثم بعلاقته بالناس، حتى قد تكون سببًا في شقائه في الدنيا والآخرة. ولما كان المقصود من هذا الكتاب بيان صلتها بمحبة الله تعالى، اقتصرنا هنا على أهم آثارها، وسيأتي - إن شاء الله تعالى، إن قدر الله لنا البقاء وأعاننا على إتمامه - بسط القول في هذه الأمراض، وأسبابها، وطرق علاجها في كتاب مستقل بعنوان: «أمراض القلوب: أسبابها وعلاجها في ضوء الكتاب والسنة».ومن اهم آثارها

(١) حرمان لذة الإيمان والطاعة

إذا مرض القلب ثقلت عليه الطاعات، وضعفت لذته بالعبادة، وفقد حلاوة الإيمان التي يجدها أهل الصدق والإخلاص.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار.»أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٤٣).

فإذا وجد العبد من نفسه نفورًا من الطاعة، أو قلة تأثر بالقرآن، أو فتورًا عن الذكر، فليعلم أن قلبه يحتاج إلى مراجعة وعلاج.

(٢) قسوة القلب

ومن أعظم آثار أمراض القلوب أنها تورث القسوة، فلا تؤثر في صاحبها موعظة، ولا يرق لآية، ولا يلين عند ذكر الله.

قال تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي.» سبق الكلام عليه

فقسوة القلب من أعظم العقوبات، لأنها تحجب العبد عن الانتفاع بالمواعظ، وتحول بينه وبين الخشوع والإنابة.

(٣) فساد العمل وحرمان القبول

صلاح العمل مرتبط بصلاح القلب، فإذا فسد القلب فسدت النية، وفسد العمل تبعًا لذلك.

قال تعالى: **﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].**

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.» [١]

فالقلب هو قائد الجوارح، فإذا صلح استقامت الأعمال، وإذا فسد فسدت، وإن حسنت صورها في أعين الناس.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، برقم (١٥٩٩).

(٤) الحرمان من محبة الله وسوء الخاتمة

وأعظم آثار أمراض القلوب أنها تحرم العبد من محبة الله، وربما أفضت به إلى سوء الخاتمة إن لم يتداركه الله برحمته.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة، و إنما الأعمال بالخواتيم.»[١]

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد، ج٤، ص٣٧، رقم (٢٨٩٨)، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ؛ ومسلم في «صحيحه»، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ج١، ص١٠٦، رقم (١١٢)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وأخرج البخاري الحديث من طريق آخر في كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها، ج٨، ص١٠٣، رقم (٦٤٩٣)، وفي آخره: «وإنما الأعمال بخواتيمها»، وأخرجه أيضًا في كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، ج٨، ص١٢٤، رقم (٦٦٠٧). فالحديث صحيح متفق عليه، وزيادة «وإنما الأعمال بالخواتيم» ثابتة في صحيح البخاري.

وأدق ما يستفاد منه: أن قوله ﷺ «فيما يبدو للناس» يحفظنا من فهم خاطئ خطير؛ فالحديث ليس دعوة إلى الشك في عدل الله أو اليأس من قبول الطاعة، بل دعوة إلى صدق السريرة، والإخلاص، والخوف من دسائس النفس، وعدم الاغترار بظاهر العمل، وسؤال الله الثبات وحسن

الخاتمة حتى الممات

فمن أعظم ما ينبغي أن يخافه المؤمن أن يلقى الله بقلب سقيم، ولذلك كان الأنبياء والصالحون يسألون ربهم الثبات وسلامة القلوب حتى يلقوه.

وهذه الآثار وغيرها تدل على أن أمراض القلوب ليست أمراضًا نظرية، بل هي أدواء تفسد على العبد دينه ودنياه وآخرته

والحمد لله أولا وآخرا ان قدر لنا اتمام ما أردنا جمعه من الكلام على المحبة وانها اصل العبادة وروحها فيلزم المسلم أن يعرف ربه غاية المعرفة فيحبه اعظم المحبة فيعبده أتم عبادة والله المسؤول ان يتقبل عملنا خالصا لوجهه الكريم اللهم آمين آمين يارب العالمين

تم الانتهاء من كتابته فى يوم الاحد الخامس والعشرين من صفر صفر ١٤٤٨ والموافق التاسع من شهر أغسطس ٢٠٢٦

والحمد لله أولا وآخرا

وكتبه

د/ ابو عمرو الأنصارى

أحمد صالح محمد مصطفى المصرى

فهرس المصادر والمراجع

م المصدر / المرجع

١ القرآن الكريم.

٢ البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣ مسلم بن الحجاج. المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤ أحمد بن حنبل. المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى.

٥ الترمذي، محمد بن عيسى. السنن، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية.

٦ النسائي، أحمد بن شعيب. السنن، مع الطبعات المعتمدة في مواضع التخريج بالكتاب.

٧ أبو داود، سليمان بن الأشعث. السنن، مع الطبعات المعتمدة في مواضع التخريج بالكتاب.

٨ ابن ماجه، محمد بن يزيد. السنن، مع الطبعات المعتمدة في مواضع التخريج بالكتاب.

٩ الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين.

١٠ البيهقي، أحمد بن الحسين. السنن الكبرى.

١١ الطبراني، سليمان بن أحمد. المعاجم: الكبير والأوسط والصغير.

١٢ ابن أبي الدنيا. كتاب الإخوان، وما نُقل عنه في أبواب المحبة بحسب مواضعه.

١٣ الطبري، محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

١٤ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٥ القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن.

١٦ البغوي، الحسين بن مسعود. معالم التنزيل.

١٧ الراغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى.

١٨ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية.

١٩ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

٢٠ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢١ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

٢٢ الغزالي، أبو حامد محمد. إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.

٢٣ ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد. جامع العلوم والحكم.

٢٤ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. فتح الباري شرح صحيح البخاري.

٢٥ النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

٢٦ الذهبي، محمد بن أحمد. ميزان الاعتدال.

٢٧ ابن حجر العسقلاني. تلخيص الحبير.

فهرس أهل العلم وتراجم موجزة

م	العالِم	ترجمة موجزة
١	أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ)	إمام المذهب الحنفي، من كبار أئمة الفقه والاجتهاد.
٢	مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)	إمام دار الهجرة، صاحب الموطأ، وإليه يُنسب المذهب المالكي.
٣	محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ)	إمام المذهب الشافعي، من أئمة الحديث والفقه، وصاحب الرسالة والأم.
٤	أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)	إمام أهل السنة وصاحب المسند، وإليه يُنسب المذهب الحنبلي.
٥	البخاري (ت ٢٥٦هـ)	محمد بن إسماعيل، إمام حافظ وصاحب الجامع الصحيح.
٦	مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)	إمام من كبار حفاظ الحديث، وصاحب الصحيح.
٧	الترمذي (ت ٢٧٩هـ)	محمد بن عيسى، حافظ ناقد، صاحب الجامع والعلل والشمائل.
٨	الطبري (ت ٣١٠هـ)	محمد بن جرير، مفسر ومحدث وفقيه، صاحب جامع البيان.

٩ الراغب الأصفهاني (ت نحو ٥٠٢هـ) لغوي ومفسر، اشتهر بكتاب مفردات ألفاظ القرآن.

١٠ أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) فقيه أصولي شافعي، له عناية بأعمال القلوب والسلوك.

١١ البغوي (ت ٥١٦هـ) الحسين بن مسعود، مفسر ومحدث شافعي، صاحب معالم التنزيل وشرح السنة.

١٢ القرطبي (ت ٦٧١هـ) محمد بن أحمد الأنصاري، مفسر مالكي، صاحب الجامع لأحكام القرآن.

١٣ النووي (ت ٦٧٦هـ) يحيى بن شرف، فقيه شافعي ومحدث، صاحب شرح صحيح مسلم ورياض الصالحين.

١٤ ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) أحمد بن عبد الحليم، إمام في العقيدة والفقه والتفسير والحديث.

١٥ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) محمد بن أحمد، مؤرخ وناقد حديثي، صاحب سير أعلام النبلاء وميزان الاعتدال.

١٦ ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) محمد بن أبي بكر، من كبار علماء السلوك والفقه، صاحب مدارج السالكين وروضة المحبين.

١٧ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) إسماعيل بن عمر، مفسر ومحدث ومؤرخ، صاحب تفسير القرآن العظيم.

١٨ ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) عبد الرحمن بن أحمد، محدث وفقيه حنبلي، صاحب جامع العلوم والحكم.

١٩ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) أحمد بن علي، حافظ ناقد، صاحب فتح الباري وتقريب التهذيب.

٢٠ الحسن البصري (ت ١١٠هـ) من أئمة التابعين، اشتهر بالعلم والزهد والمواعظ وأعمال القلوب.

	الموضوع	رقم الصفحة
١.	المقدمة	٢
٢.	التمهيد منزلة المحبة في الإسلام	٧
٣.	الفصل الأول تعريف المحبة لغةً واصطلاحًا	١٠
٤.	المبحث الثاني حقيقة المحبة عند أهل السنة والجماعة	١٤
٥.	المطلب الثاني منزلة المحبة عند أهل السنة والجماعة	١٨
٦.	المطلب الثالث المحبة أصل العبودية وروحها	٢١
٧.	المطلب الرابع لماذا كانت محبة الله أصل الدين؟	٢٥
٨.	المطلب الخامس هل محبة الله تعالى فطرية أم مكتسبة؟	٢٩
٩.	المطلب السادس أسباب محبة الله تعالى	٣٢
١٠.	الفصل الثاني آيات المحبة في القرآن الكريم	٣٨
١١.	المبحث الأول أصول المحبة في القرآن الكريم	٤٢
١٢.	المطلب الثاني: اتباع الرسول ﷺ برهان صدق المحبة	٤٨
١٣.	المطلب الثالث أعمال تستوجب محبة الله تعالى وتجعل العبد من أوليائه	٥٢
١٤.	المطلب الرابع تقديم محبة الله ورسوله على سائر المحاب	٦٣
١٥.	المطلب الخامس	٨٠

	الابتلاء محكُّ صدق المحبة والثبات عليها	
١٦.	المبحث الثانى منزلة المحبة في السنة النبوية	١٠٠
١٧.	المطلب الأول المحبة أصل الإيمان وكماله	١٠١
١٨.	المطلب الثاني المحبة سببٌ لنيل محبة الله تعالى	١٠٣
١٩.	المطلب الثالث المحبة في الله من أوثق عرى الإيمان	١٠٦
٢٠.	المطلب الرابع الدعاء بالمحبة وآثارها في حياة المؤمن	١٠٩
٢١.	الفصل الثالث المبحث الاول : من أحبهم الله بوصفهم وصفاتهم	١١٣
٢٢.	المبحث الثالث الصفات التي أثنى الله على أهلها، ورتب عليها أعظم الثواب،	١٦٠
٢٣.	المبحث الرابع: ثمرات محبة الله لعبده في الدنيا والآخرة	٢٠١
٢٤.	الفصل الخامس: موانع المحبة	٢٠٩
٢٥.	المبحث الأول الصفات التي نص القرآن على أن الله لا يحب أهلها	٢١٠
٢٦.	المبحث الثاني الصفات التي ذمها القرآن والسنة، وهي من أعظم أسباب الحرمان من محبة الله تعالى	٢٣١
٢٧.	المبحث الثالث : آثار أمراض القلوب في الدنيا والآخرة	٢٦٧
٢٨.	فهرس المصادر والمراجع	٢٧٣
٢٩.	فهرس أهل العلم وتراجم موجزة	٢٧٦